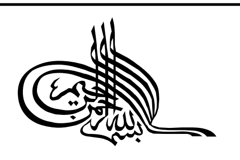


أُدْعُ إِلَى سَبِيْلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جَادِلْهُمْ
بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ (القرآن الحكيم)





مجلة عربية إسلامية شهرية
تصدر عن الجامعة الإسلامية : دارالعلوم
ديوبند ، يوبي ، الهند

ISSN 2347-8950

العـــدد : ٣ ، السنـــة : ٤٤

ربيع الأول ١٤٤١هـ ، نوفمبر ٢٠١٩م

تحت إشراف

فضيلة الشيخ أبوالقاسم النعماني
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

نـور عـالـم خليـل الأميـنـي
أستاذ الأدب العربي بالجامعة

مساعد التحرير

محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري
الأستاذ بالجامعة

الاشتراكات

- ثمن النسخة : ٣٠ روبية هندية

قيمة الاشتراك السنوي

- في الهند : ٣٠٠ روبية هندية
- وفي خارج الهند للأفراد : ٦٠ دولاراً
- وللمؤسسات الحكومية : ٨٠ دولاراً

عنوان المجلة على الانترنت

Web : http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine

طالعها الآن

البريد الالكتروني

E-mail : info@darululoom-deoband.com

المراسلات

رئيس تحرير مجلة الداعي
دارالعلوم ، ديوبند ، يوبي (الهند)
الرمز البريدي ٢٤٧٥٥٤

Chief Editor
AL – DAIE
Arabic Islamic Monthly
Darul – Uloom,
Deoband – 247554
(U.P.) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph. : (00-91-1336) 222429
Fax : (00-91-1336) 222768

المواد التي تنشرها المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبيها و لا تعبّر – بالضرورة – عن رأي المجلة

المحتويات

كلمة المحرر

لقاء فريد من نوعه .... آمال وشكوك

وسط أجواء مشحونة بالتوتر الطائفي المتصاعد في طول البلاد وعرضها، الذي ذهب ويذهب كل يوم ضحيتَها الأبرياءُ من الأقلية المسلمة والمنبوذين وغيرهم باسم حيازة لحوم البقرة أو أكلها أو حملها، وبإباء النداء بما ينافي دينهم وعقيدتهم اجتمع القيادي الهندي الديني الأبرز و رئيس جمعية علماء الهند- أعرق الجمعيات الإسلامية الخيرية في تاريخ المسلمين في الهند- برئيس أعرق منظمة هندوسية معروفة بمواقفها المعادية للإسلام والمسلمين - وهي منظمة آر إيس إيس (R.S.S) - في الأيام الأخيرة بحثًا عن سبل نشر ثقافة التناغم الطائفي بين المسلمين والهندوس، وتخفيفًا لحِدة التوتر القائم بين الفئتين.

لقي هذا الاجتماع بين القياديين الأبرزين: المسلم والهندوسي ترحيبًا حارًا من قبل الأوساط الهندية، وحظي بتغطية شاملة من قبل وسائل الإعلام المقروءة و المسموعة على مستوى البلاد. وإن شكَّكَ بعض المحللين في جدية وفائدة هذا الاجتماع إلا أن الذي لايختلف فيه اثنان أنه- هذا الاجتماع- قد يؤدي إلى تخفيف التوتر بين الطائفتين في البلاد لحدٍ ما في المستقبل بصورة أو أخرى إن لم يستطع كسر الحواجز برمتها. وليس من شأن المسلم ولا طبيعة دينه أن يغلق أبواب الحوار والتفاهم، فالشريحتان الواسعتان من سكان البلاد: المسلمون والهندوس في حاجة أشدَّ من أي وقت مضى إلى بث ثقافة الحوار فيما بينهما عامةً وفيما بين الرموز الدينية والاجتماعية بصفةٍ خاصةٍ.

وأكد رئيس الجمعية خلال الاجتماع أنه يجب أن نقلق على البلاد قبل أن نقلق على أنفسنا في الوقت الذي تمر فيه البلاد بأسوأ وضع في تاريخها؛ فاللاتسامح بين أفراد المجتمع الهندي قائم سوقه وحامٍ وطيسه في أدنى البلاد و أقصاها. وإن لم نقم بدورنا في التغلب على هذا الوضع الأليم، و في نشر ثقافة التناغم والانسجام والتعايش السلمي والمؤاخاة والتسامح في مختلف شرائحها، جَرَّ ذلك على الأقليات بصفةٍ عامةٍ وعلى الأقلية المسلمة بصفةٍ خاصةٍ؛ بل على سكان البلاد كلهم ويلاتٍ وخسائر لايعلم مداها إلا الله تعالى. وإذا لم تقم القيادات الاجتماعية بدورها المطلوب والمرجو في هذا الصدد؛ فإن بلادنا الحبيبة هذه ستتعرض -لاسمح الله- لما لايحمد عقباه. وكل ذلك يستوجب التكاتف والتعاضد في سبيل وحدة البلاد والتسامح والتآخي بين سكانها، بغضِّ النظر عن الانتماء الديني أو العرقي أو الاجتماعي.   [التحرير]

(تحريرًا في الساعة الخامسة من مساء يوم الاثنين: ٩/المحرم الحرام ١٤٤١هـ = ٩/سبتمبر ٢٠١٩م).

لقد كان الرسولُ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رحمةً مُهْدَاةً

لمّا أراد الله – عزّ و جلّ – أن يُكْمل دينَه للناس، ويُتِمَّ عليهم نعمتَه، ويختم رسالاته إليهم، بَعَثَ رسولَ الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رحمةً للعالمين. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء:١٠٧). وقال – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عن شخصه: «إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاةٌ» (البيهقي في شعب الإيمان: ١٣٣٩؛ والدارمي: ١٥).

فاللهُ تعالى مَيَّزَ نبيَّه الخاتَمَ بالرحمة والرأفة؛ حيث قال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨).

وأكرمه الله بقلب يفيض حبًّا وحنانًا ورحمةً بالخلق، فكان يحبّ الخيرَ للعالمين، ويعامل الكلَّ بالرحمة واللين، سواء أكان كبيرًا أو صغيرًا، أو مؤمنًا أو مشركًا؛ بل إنسانًا أو حيوانًا، أو قويًّا أو ضعيفًا، أو غنيًّا أو فقيرًا، أو أبيض أو أسود.

والكتاب الذي أَنْزَلَه اللهُ عليه جَعَلَه كتابَ رحمة، فقال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء:٨٢) والدين الذي جاء به من عند ربّه، هو دين الرحمة والسلام والأمن والأمان، وشرائعه كلُّها رحمة بالبشرية جمعاء، قال القاضي عياض (أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض السبتي اليحصبي العلامة الفقيه المحدث المؤرخ القاضي المالكي ٤٧٦-٥٤٤هـ = ١٠٨٣-١١٤٩م) رحمه الله تعالى: «زَيَّنَ الله تعالى محمدًا – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بزينة الرحمة، فكان كونه رحمةً، وجميعُ شمائله وصفاته رحمة على الخلق؛ فمن أَصَابَه شيءٌ من رحمته، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كلّ محبوب، ألا ترى أنّ اللهَ تعالى يقول: «وما

أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ»[1].

فبعثةُ الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كانت رحمة للإنسانية بل للخلق كلهم حتى كافرهم ومشركهم، فكان يعفو ويصفح، ويُمْهِل ويُهْمِل، ويُبَشِّر ويُيَسِّر، ويُؤْنِس ولا يُنَفِّر.

ولذلك لم يجمع اللهُ تعالى لأحد من أنبيائه اسْمَيْنِ من أسمائه إلّا النبيَّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حيث قال عنه: ﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة:١٢٨) وقال عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (الحج:٦٥).

فكان يرحم بالرجل حتى في بعض المواقف الحرجة التي تُثِيرَ السَّخَطَ أو الكُرْهَ على الأقلّ: قام أعرابي فبال في المسجد، فتَنَاوَلَه الناسُ، فقال لهم النبيُّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- «دَعُوه، وهَرِيقُوا على بوله سَجْلًا أو ذَنُوبًا من ماء؛ فإنّما بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِين ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ» (البخاري:٢٢٠).

وكان يرحم بالمرأة، فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «رِفقًا بالقوارير، إنهن عَوَانٌ عندكم» (الترمذي: ١١٦٣).

وكان رحيمًا بالجماد، فالجِذْعُ الذي كان يَخْطُب مُسْتَنِدًا إليه، صار يَحِنُّ إليه، ويُصْدِر صوتًا لفراقه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- (ابن ماجه: ١٤١٤).

وكان رحيمًا بالحيوان، ففي صحيح مسم: أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- دَخَلَ حائطًا، يعني بستانًا، لرجل من الأنصار، فإذا فيه جمل، فلمّا رآه الجملُ حَنَّ وذَرَفَتْ عَيْنَاه، فمسَحَ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ظَهْرَه ورَقَبَتَه فَسَكَنَ الجملُ. ثم قال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**أيُّكم صاحب هذا الجمل؟**» فقال فتى من الأنصار: هو لي يا رسول الله!. فقال -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**ألا تَتَّقِي اللهَ في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ إيّاها؟ إنّ هذا الجملَ يشكو إلي أنّك تُجِيعُه وتُدْئِبُه**» فتعهّد الأنصاريُّ ألّا يُتْعِبَه بعد ذلك أبدًا (أبوداود: ٢٥٤٩).

وكان رحيمًا بالطيور، فقال في حُمَّرَة: «**من فَجَعَ هذه بولدها؟ رُدُّوا ولدَها إليها**» (أبوداود: ٢٦٧٦).

وبلغ من رحمته أنه كان حريصًا جدًّا على

---

[1] الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض: ٥٦/١.

هداية الناس حتى ينجوا من النّار، فعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن رسول الله -ﷺ- قال: «**مثلي كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولَها جَعَلَ الفراشُ وهذه الدَّوَابُّ التي من النار يَقَعْنَ فيها، وجَعَلَ يَحْجُزهُن، ويَغْلِبْنَه فيَقْتَحِمْنَ فيها. قال: فذلك مثلي ومثلكم، أنا آخُذُ بحُجَزِكم عن النار، فتَغْلِبُونِي تَقْحُمُون فيها**» (مسلم: ٢٢٨٤).

وعن أبي موسى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن النبي -ﷺ- قال: «**إن مثلي ومثل ما بَعَثَنِي الله به كمثل رجل أتى قومَه فقال: يا قومِ إني رأيتُ الجيشَ بعَيْنَيَّ، وإني أنا النذير العريان، فالنجاءَ، فأطَاعَه طائفةٌ من قومه، فأدلجوا، فانطلقوا على مهلتهم. وكَذَّبَتْ طائفةٌ منهم، فأَصْبَحَهُمُ الجيشُ، فأَهْلَكَهُم واجْتَاحَهُم، فذلك مثل من أطاعني واتَّبَعَ ما جئتُ به، ومثل من عصاني وكَذَّبَ به من الحق**» (مسلم: ٢٢٨٣).

ولكونه -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- رحمةً للعالمين لم يَدْعُ قطُّ على المشركين والكفّار، رغم مطالبة الصحابة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ- بذلك، فعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قيل: يا رسول الله! أُدْعُ على المشركين. قال: «**إني لم أُبْعَثْ لَعَّانًا إنما بُعِثْتُ رحمةً**» (مسلم: ٢٢٩٩).

والمشركون الذين أخرجوه من وطنه مكة، وآذوه بأنواع الأذى، فضربوه، وبَصَقُوا في وجهه وأَلْقَوا سلا الجزور على ظهره وهو ساجد، وخنقوه بثوب حتى ضاقت بذلك نفسه، وعَذَّبوا أصحابه، وأذاقوهم أشدَّ العذاب، وصَبُّوا عليهم الأذى، وأهانوهم أمام نَاظِرَيْه، فعرض عليه ربُّه إهلاكهم – المشركين – فقال في رقة ورحمة: «**بل أرجو أن يُخْرِجَ اللهُ من بين أصلابهم من يعبد اللهَ وحدَه لاشريك لَه**» (البخاري: ٣٢٣١).

ويوم فتح مكة يقابل أعداءه – الذين حاربوه وطردوه، وحاولوا إذلالَه وهو كريم بن كريم، واتَّهَمُوه في عقله، ودعوه شاعرًا، وسَمَّوْه ساحرًا – بالصفح والعفو العامّ والرحمة المنقطعة النظير، ويقول لهم: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**» (سيرة ابن هشام: ٤١٢/٢؛ مغازي الواقدي: ٨٢٢/٢).

ويستوصي أصحابه بأسارى المشركين بأيدي المسلمين، فهذا أبو عزير بن عمير – أخو مصعب بن عمير – يُحدِّث عمّا رآه، فيقول: كنتُ في الأسرى يومَ بدر، فسَمِعَ النبيَّ – ﷺ – يقول لأصحابه: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**». قال: وكنتُ في رهط من الأنصار، فكانوا إذا قَدَّموا غداءَهم وعَشَاءَهم خَصَّوني بالخبز، وأكلوا التمر؛ لوصيّة رسول الله – ﷺ – إيّاهم بنا.

وقد رأى النبيُّ – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَسْرَى بني قريظة موقوفين في قيظ النهار تحت الشمس، قال: «**لا تجمعوا عليهم حَرَّ هذا اليوم وحَرَّ السلاح، قَيِّلُوهم حتى يُبْرِدُوا**».

ولم تكن الرحمةُ في حياته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أحداثًا ومواقف، وإنما كانت صفةً لا تَنْفَكُّ منه في حال من الأحوال، وكان يَصْدُرُ عنها في جميع تعاملاته في الحياة؛ لأنّها عُجِنَتْ بها طينتُه – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وكانت ميزةً لشخصيّته النبويّة، فَتَمَثَّلَتِ الرحمةُ فيه في أعظم معانيها، وأكمل صُوَرها، وأسمى مظاهرها التي حَفَلَتْ بها سيرتُه، وتَرِعَتْ بها شريعتُه؛ من هنا رَحِمَ الصغيرَ والكبيرَ، والعدوَّ والصديق، والقريب والبعيدَ، والإنسان والحيوان، والجمادَ والنباتَ.

وأَعْظَمُ من سَعِدَ برحمته – ﷺ – هم أصحابُه – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ – الذين كانوا موضع حبّه وعطفه ولطفه، حتى شَهِدَ الله تعالى بقوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:١٢٨) و بقوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ (التوبة:٦١) وقد عَلِمَ اللهُ تعالى من رحمته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وشفقته على صحابته – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ – فجَعَلَه أولى بهم من أنفسهم، فقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (الأحزاب:٦).

أمّا أمته – صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فلم يَنْسَهَا، وإنما خَصَّها من الرحمة والشفقة بما فاق فيها إخوانَه الأنبياءَ جميعًا، ومما يدلّ على ذلك، أنه كان يُكْثِر من قوله: «لولا أن أَشُقَّ على أمّتي».

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص – رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا –: أن النبيّ – ﷺ – تلا قول الله – عزّ وجلَّ – في إبراهيم – عليه وعلى نبينا

الصلاة والسلام – : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (إبراهيم:٣٦) وقولَ عيسى – عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام – : ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (المائدة: ١١٨) فرفع يَدَيْه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وقال: «اللّٰهم أمّتي أمّتي» وبكى –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال اللهُ – عزّ وجلّ – يا جبريل، اِذْهَبْ إلى محمد – وربّك أعلم – فسَلْهُ ما يُبْكِيكَ؟ فأتاه جبريل فسأله، فأخبره رسول الله –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فقال الله – عَزّ وجلَّ –: «يا جبريلُ! اِذْهَبْ إلى محمد، فقُلْ: إنّا سنُرْضِيكَ في أمّتك، ولا نَسُوءُكَ» (مسلم: ٣٣٣).

وقـد جَعَـلَ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– دعوتَـه المستجابة لأمّتـه، فقـال –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: «لكل نبيّ دعوةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فتَعَجَّلَ كلُّ نبيّ دعوتَه، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة – إن شاء الله – من مات من أمتي لا يُشْرِك بالله شيئًا». (متفق عليه: البخاري: ٦٣٠٤؛ ومسلم: ١٩٩).

فرحمته –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بأمته لا تخص دنياهم وإنما تشمل آخرتهم كذلك. وبلغ من رحمته بأمته أنه ربّما كان يترك بعضَ السنن والمستحبّات، خشيةَ أن تُفْرَضَ على أمّته فلا يطيقونها؛ لأنّها تشقّ عليهم. قالت أمّ المؤمنين عائشة –رَضِيَ اللهُ عَنْهَا–: «إن كان رسول الله –ﷺ– لَيَدَعُ العملَ وهو يُحِبّ أن يعمل به، خشيةَ أن يعمل به الناسُ، فيُفْرَضَ عليهم». (البخاري: ١١٢٨؛ ومسلم: ٧١٨).

وهذه المظاهر كلُّها من رحمته –ﷺ– قطرة من المحيط الزاخر بالأخلاق النبوية العطرة والسماحة النادرة والشفقة التي كان حظَّه –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وحده و التي تَمَيَّزَ بها النبيُّ الخاتمُ –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–.

جَعَلَنَا اللهُ وجميعَ المسلمين بفضله من المستحقين لرحمته –صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– وشفاعته يومَ لا ينفع مال ولابنون.

نور عالم خليل الأميني
nooralamamini@gmail.com

(تحريرًا في الساعة الثانية عشرة من يوم الثلاثاء: ١٨/ذوالحجة ١٤٤٠هـ الموافق ٢٠/أغسطس ٢٠١٩م).

من ظلال التفسير

بقلم: العلامة الشيخ شبير أحمد العثماني رحمه الله
(١٣٠٥-١٣٦٩هـ/١٨٨٧-١٩٤٩م)

تعريب: أبو عائض القاسمي المباركفوري

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

سبق أن قلنا: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لوفد نجران: «أسلموا». فقالوا: «أسلمنا». فعُلِمَ منه أنهم كانوا يزعمون أنهم مسلمون مثل المسلمين، وكذلك حين عُرِض التوحيدُ على اليهود والنصارى قالوا: نحن نوحد الله تعالى؛ بل ما من صاحب دين إلا وهو يقرُّ– في مرحلة عليا من دينه، وبصورة أو أخرى – بأن الإله الأكبر واحد. وإنما أراد هنا لفت انتباههم إلى أن العقيدة الأساسية – توحيد الإله، والإسلام– التي نتفق عليها، مما يجمعنا على رصيف واحد، شريطة ألا يغيروا حقيقتها بتصرف أو تحريف منهم.

فائدة:

وإنما نحتاج إلى أن تسلموا وجوهكم لله وحده لاشريك له حقيقةً وعملًا، كما تتظاهرون بألسنتكم بأنكم مسلمون موحدون. فلاتعبدوا إلا إياه، ولاتشركوا أحدًا في صفاته، ولاتقفوا من الله القدير موقفكم من غيره من العلماء والزهاد والصلحاء والرسل، منها: اتخاذ أحد ابنًا أو حفيدًا له، أو تحليل الأشياء أو تحريمها بتحليل أحد أو تحريمه بغض النظر عن النصوص الشرعية. كما يتضح ذلك من تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١].

فائدة:

أعرضتم بعد ادعاء الإسلام والتوحيد، ونحن – ولله الحمد– قائمون على أن نسلم وجوهنا لله وحده، وأطعنا أمره.

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

فائدة:

كما أنهم جميعًا اشتركوا في دعوى التوحيد والإسلام، كذلك يشتركون في تعظيم وتكريم

إبراهيم خليل الله، وكان كل واحد من اليهود والنصارى يزعم أن إبراهيم كان على دينه، أي كان يهوديًّا أو نصرانيًّا – والعياذ بالله-. فردَّ عليهم بأن التوراة والإنجيل – اللذين يطلق على أتباعهما اليهود والنصارى- لم ينزلا إلا بعد إبراهيم عليه السلام بمئات السنين. فكيف يصح وصف إبراهيم عليه السلام باليهودية أو النصرانية؛ بل لايصح وصف موسى وعيسى باليهودية والنصرانية التي أنتم عليها. فإن قلتم: إن شريعة إبراهيم أقرب إلى دينكم، فهذا باطل، وأنى لكم علم ذلك؟ ولم يردْ ذلك في كتبكم، ولا أخبر الله تعالى بذلك. هل عندكم من سلطان؟ فهل المحاجة في أمر لا علم لكم به إلا سفه وحمق؟ وقد حاججتم فيما لكم بعض العلم وإن كان ناقصًا وعابرًا، منها: قصص المسيح عليه السلام أو بشارات النبي الخاتم عليه السلام، فأسلموا إلى الله تعالى الأمرَ الذي ليس لكم به علم أصلا، ولا مستكم نفحة منه، هو أعلم بما كان عليه إبراهيم عليه السلام، وأي الأديان في عالَم اليوم أقرب إلى دينه.

مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

فائدة:

وَصَفَ إبراهيم نفسه بالحنيفية أو الإسلام، والحنيف: هو الذي اختار طريقًا واحدًا حقًّا، معرضًا عن السبل الباطلة كلها. والمسلم: هو المنقاد الطائع، فأخبروني أنتم بمن انحرف عن الطرق الزائغة واستمسك بسبيل الله تعالى، وأسلم نفسه إليه، فهو الأقرب إلى إبراهيم وأشبه به.

تنبيه:

ولاحاجة إلى حمل (مسلما) على الشريعة المحمدية المحضة؛ بل يحمل على التسليم والتفويض والانقياد، مما كان عليه الأنبياء كلهم، وزاد إبراهيم هذا الاسم واللقب نورًا وضياءً. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ﴾ [البقرة:١٣١]. وما من ناحية من نواحي حياة إبراهيم عليه السلام إلا دلت على أنه كان كله إسلامًا وتسليمًا ورضى بربه سبحانه. وقوله سبحانه في قصة ذبحه إسماعيل: ﴿فَلَمَّا اَسْلَمَا وَتَلَّه لِلْجَبِيْنِ﴾ [الصافات:١٠] يكشف عن «إسلامه» بصورة ملموسة. صلى الله على نبينا وعليه وبارك وسلم.

إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

فائدة:

أخبر الله تعالى بأن أولى الناس بإبراهيم هذه الأمة أو الأمم التي سبقتها؟ فإذا كانت هذه الأمة أولى الناس به، فهي أشد لصوقًا بهذا الاسم وأقرب إلى ما كان عليه إبراهيم عليه السلام. ونبي هذه الأمة أشبه الناس بإبراهيم خلقًا وخُلقًا وصورةً وسيرةً، جاء بدعوة منه، كما سبق في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩] أي: صلِّ

عليه صلاة تشبه الصلاة على إبراهيم عليه السلام وآل إبراهيم، جاء في سنن الترمذي «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وُلَاةً مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيِّي أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي»[1](1).

فائدة ٢:

أي إنما يستدل المرء على أنه على الحق بمجرد الموافقة والتشابه مع أحد إذا لم ينزل عليه الوحي. والله تعالى ولي المؤمنين؛ لأنهم يطيعون أمره مباشرة.(موضح القرآن).

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾

فائدة:

قال سابقًا: ﴿وَ اللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]، وأخبر هنا بأن الله تعالى إذا كان ولي المؤمنين، فكيف تنطلي حيلتكم عليهم، ولاشك أن بعض أهل الكتاب يريدون أن يُضلوا المسلمين عن الحق كما هم ضلوا؛ ولكن هيهات أن يقع المسلمون في حبائلهم، نعم إنهم يزيدون من وبال ضلالهم وغوايتهم، و لاتعود مساعيهم في إغواء المسلمين إلا عليهم، ومما لا يدركونه في الحال.

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

فائدة:

أي تؤمنون بالتوراة وغيرها، التي تبشر بالنبي العربي محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقرآن الكريم، و نفوسكم تستيقنه، وتقرون به إذا خلوتم، فما الذي يحبسكم عن الإيمان بالقرآن الكريم وتصديق خاتم الرسل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علنًا وجهرًا؟ واعلموا أن الكفر بالقرآن كفر بسائر الكتب السماوية.

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾

فائدة:

عطَّلوا بعض أحكام التوراة لتحقيق أغراض دنيوية، وحرفوا بعض آياتها تحريفا لفظيا، وغيَّروا معنى بعضها، وكتموا بعضها، ولايخبرون به كل أحد، ومنها بشارة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾

فائدة ٢:

تتحدث هذه الآيات عن مكايد أهل الكتاب وخياناتهم، ومنها: أن يتظاهر بعضهم بالإيمان صباحًا، ويصلي مع المسلمين، ثم يمسي ويقول: لقد تأكد لنا في ضوء تحقيقات كبار العلماء أنه ليس النبي الذي بُشِّر به، وشهدت التجارب أنه ليس على ما يكون عليه أهل الحق، ثم يرتد عن الإسلام.

ويؤدي ذلك إلى ارتداد كثير من ضعاف الإيمان عن الإسلام حين يرون فعلتهم هذه. ويجزمون بأن دين الإسلام –لامحالة – ينطوي على بعض العيوب والنقائص التي دفعتهم إلى الارتداد عنه. وكان جهلة العرب مفتونين بعلم أهل الكتاب وفضلهم. فيخطر ببالهم –بناء عليه– أن هذا الدين

(1) الحديث رواه الترمذي في السنن [٢٩٩٥].

الجديدلم يكن ليرده أهل العلم أمثالُ هؤلاء لو كان حقا؛ بل سابقوا الناسَ إليه.

وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

فائدة:

أي أن اليهود الذين يتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين نفاقًا ورياء، ليكونوا على علمٍ بأنهم لم يعودوا مسلمين حقا؛ بل هم على اليهودية كما كانوا عليها، ولايطيعون من قرارة نفوسهم إلا من كان على دينهم، ويدعي اتّباع شريعة موسى عليه السلام. وقيل: معنى قوله ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيْنَكُمْ﴾: لِيَكُنْ تظاهركم بالإيمان والإسلام لصالح من اتبع دينكم اليهودية، أي يقصدون بهذه الحيلة الحفاظَ على أهل دينهم، مخافة أن يؤمنوا أو ليردوا من آمن منهم عن الإيمان.

فائدة:

أي لاهدى إلا من الله تعالى، فمن ألقى الله تعالى في روعه نور الهداية لن يضل عن الحق بحِيَلكم الخادعة.

أي هذه المكايد والحِيَل ليس وراءها إلا حسد الناس على أن يؤتوا هذه الشريعةَ والنبوة و الرسالة مما لم يؤتوه، أو حسدًا للناس على أن يسبقوهم في المساعي الدينية، ويجعلوهم- اليهودَ- جناةً أمام الله تعالى. وظلت اليهود ينفخون في العالم أن العلم بالشرعيات حكرٌ عليهم وحدهم، فإن التوراة نزلت عليهم، وبُعِث فيهم موسى من أولي العزم من الرسل، فما للعرب الأميين وهذا الفضل والكمال؟

فائدة:

ولكن لن تكذب البشارة التي جاءت في سفر الاستثناء من التوراة، التي ورد فيها: إن الله تعالى يبعث من بين إخوة بني إسرائيل- بني إسماعيل- رسولًا مثل موسى – صاحب شريعة مستقلة-، ويلقي في فيه كلامه، قال تعالى: ﴿إِنَّآ اَرْسَلْنَآ اِلَيْكُمْ رَسُوْلًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ اَرْسَلْنَآ اِلٰى فِرْعَوْنَ رَسُوْلًا﴾ [المزمل:١٥] فنال بنو إسماعيل هذه النعمة، وسبقوا في مجال العلم والفضل والحجة والبرهان والمساعي الدينية اليهودَ؛ بل أممَ العالم كلَّها، فالحمد لله على ذلك.

تنبيه:

فسِّرت هذه الآية على وجوه عدة، وإنما فسرناها على الوجه الذي أشار إليه ما جاء في ترجمة المحقق الدهلوي قدس سره إلى الأردية.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

فائدة:

أي لاينقص شيءٌ خزائنَ الله تعالى، ولايعلم إلا هو ما سيناله من الفضل والكمال، ومن سيناله؟ وإن توزيع النبوة والشريعة والإيمان والإسلام، وسائر الفضائل والكمالات المادية والروحانية بيده، يؤتي من يشاء ومتى يشاء، قال تعالى: ﴿اَللّٰهُ اَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَه﴾ [الأنعام:١٢٤].

السنن الإلهية علمًا من علوم الإسلام

بقلم: **أ. د. رشيد كهوس** (*)

أولى القرآن الكريم السنن الإلهية عنايةً كبيرةً واهتمامًا بالغًا، وقد شغلت حيزًا كبيرًا من سوره وآياته وسياقاته ودلالة خطابه، من أجل أن يوجه أنظارنا إلى علميتها ومكانتها في الحياة البشرية وأهميتها في ضبط حركة الوجود بأسره.. قال الله تبارك وتعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح:٢٣].

هذا، وتعتبر السنن الإلهية حقائق ثابتة تقدم لنا تصورًا واضحًا شموليًّا وكليًّا وتفسيرًا صحيحًا عن الوجود والإنسان والحياة، فهي فقه التاريخ والعمران والاجتماع البشري وعلم النفس الإسلامي؛ لأنها تبصرنا بطبائع النفوس، وعلل الحضارات، وهي عوامل تشكل المجتمعات وصناعة التاريخ، كما تكشف لنا عن كليات الدين وغاياته الكبرى، وعن منهاج بناء الإنسان الصالح المصلح والأمة الشاهدة..

لقد مثلت السنن الإلهية فتحًا ربانيًا غيَّر تصور البشرية حول القضاءوالقدر ووقائع الدهر، فقد جاء هذا في الوحي المنزل على سيدنا محمد ﷺ (قرآنا وسنة) حين بلغت الإنسانية كمالها، وأصبحت قادرة على الربط بين المقدمات والنتائج، والعلل والمعلولات، والأسباب والمسببات، أي حين أصبحت الإنسانية قادرة على الوعي بالسنن الإلهية التي تحكم سير الحياة البشرية.. وقد كان الناس قبل نزول الوحي يلجأون إلى تفسيرات خرافية للأحداث والوقائع والظواهر الكونية والاجتماعية.

فما حد علم السنن الإلهية، وما موضوعه ونسبته وحكم الشرع فيه؟ وما فضله وثمرته؟ وكيف يتم استمداده؟

١ـ حد علم السنن الإلهية وموضوعه ونسبته:

أ)-حد علم السنن:

هو العلم بالمنظومات السننية الناظمة لحركة الوجود وسير المجتمعات عامة، ولسلوك الإنسان وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ خاصة.

ذلك بأن علم السنن الإلهية هو علم يبحث في المؤطرات السننية المرجعية التي يخضع لها الكونان: الطبيعي والبشري، المادي والاجتماعي، وتضبط كل مفردة في هذا الكون العام.

وهو الفلسفةالقرآنية التصورية للكون والحياة، الناظمة للعلاقات بين مختلف المكوَّنات والتجمعات البشرية والأنساق الحضارية، وهي مفاتيح لفهم تدفق الحياة والوجود وحركة التاريخ

(*) أستاذ ومنسق فريق البحث في السنن الإلهية بكلية أصول الدين بـ«تطوان» جامعة عبد المالك السعدي، المغرب.

والحضارات وتشكُّل المصائر[١].

ب)- موضوع علم السنن ونسبته:

موضـوع علـم الـسنن الإلهيـة هـو الظـواهر الاجتماعيـة والكونيـة وحركـة الحيـاة البـشرية التـي تخضع لمشيئة الله وقدره؛ أي أن موضوعه: الإنسان -(باعتبـاره نفـسًا وجماعـةً ومجتمعًـا وأمـةً وحـضارة وتاريخًا)- والكون.

أما نسبته فإلى أشرف العلوم الذي هو الوحي باعتباره المصدر الأول والأساس الذي يستمد منه، ثـم إلى التـاريخ والكـون باعتبارهما مـصدرين تـابعين مؤكدين لما جاء في الوحي من أصول وقواعد سننية كلية شاملة متكاملة.

ذلـك بـأن «القـرآن الكـريم بنـصه المعـصوم، والسنة الصحيحة المبيِّنة له، يتضمنان معالم الخريطة الـسننية الكونيـة الكليـة المتوازنـة التي تتيح التـوازن والتكامل والأصالة في الفهم، والفعالية والكفاءة في العمل والبناء والوقاية الشاملة»[٢].

٢ـ حكم الوحي في علم السنن:

إن دراسـة علـم الـسنن الإلهيـة واجـب دينـي وضرورة شرعيـة، ذلـك بـأن الواقـع المعـيش الـذي يحيـاه المـسلمون وتكالـب الأمـم الغربيـة علـيهم والخطوب التي حلت بديارهم يستدعي العودة إلى الأصول الثابتة والدعائم المتينة التي انطلقت منها أمـة الإسـلام في نهـضتها الأولى؛ فحققـت ازدهـارًا حضاريًّا وإشعاعًا عالميًّا...

إن السير في الدنيا دون الوقوف على شيء من علم السنن ضرب في متاهة، ومشي في غياهب الظلم بـلا دليـل يقـود، ولا هـاد يرشـد، ولا صـاحب يـدل؛ لأنه فَقْدٌ لاستصحاب جزء من المعرفة التي يترتب عليهـا الإعـداد لكـل نازلـة، أو الإفـادة مـن كـل منحة[٣].

يقـول الـدكتور رمضان خميس الغريب: «النظر في الـسنن الإلهيـة فريـضة وضرورة، فهـو فريـضة للآيـات الكريمـة التـي تحـث عـلى النظـر والـسير والاعتبـار بمـن خلـوا، والتفكـر في آثـار الـذاهبين؛ فالـسعيد مـن وعـظ بغـيره، والـشقي مـن وعـظ بنفسه»[٤].

ذلـك بـأن «إرشـاد الله إيانـا إلى أن لـه في خلقـه سننًـا، يوجـب علينا أن نجعـل هـذه الـسنن علمًا مـن العلـوم، لنَسْتلهِم ما فيها مـن الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلـم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال، وقد بينها العلماء بالتفصيل عملًا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه»[٥].

وعـلاوة على ذلك فقد قدمت معرفة الـوحي في الكتاب والسنة الخلاصات والنماذج المطلوبة من قـصص الأنبيـاء التـي تعتـبر مـنجمًا زاخـرًا بـالعبر والـدروس، وعطـاء لا ينفـد للتـدافع والـصراع بـين الخير والشر والحق والباطل، والنتائج والمآلات التي تحققـت وفـق الـسنن الإلهيـة في التـاريخ الـذي يعتـبر المختـبر البـشري الـدقيق لفاعليـة هـذه الـسنن، حتـى لقد جعلت معرفة الـوحي السير في الأرض والنظر في أحوال الأمم السابقة، وإدراك السنن التي حركت

مسار التاريخ أو تحرك التاريخ في مسارها، من العلوم المطلوبة للمسلمين، والتي بدون العلم بها سوف يخرجون من التاريخ، وينقلبون من وسيلة محركة فاعلة قائدة مسخِّرة إلى أداة معطلة مسخَّرة.. سوف يتحولون من صناعة التاريخ إلى أن يكونوا محلا لحركة التاريخ وتجاربه(٦).

لذلك فإن أعظم خلل لحق بالعقل المسلم المعاصر يكمن في عدم التأصيل والتأسيس لعلم السنن الإلهية من خلال نضج الرؤية القرآنية وتنزيلها على الواقع في السيرة العطرة والسنة النبوية الشريفة، ومن خلال استقراء محركات الصراع في تاريخ البشرية، وعوامله وأسبابه ونتائجه ومآلاته.. إن هذا الخلل هو غياب عن الوعي السنني، تطيش معه السهام، وتضل معه العقول، ويقع الإنسان معه فريسة للمفاجآت والعجز عن التعامل معها؛ لأنه عاجز ابتداء عن فهم المقدمات والأسباب الموصلة إليها(٧).

٣ـ فضل علم السنن وثمرته:

إن معرفة السنن الإلهية جزء من معرفة الدين أو معرفة جزء من الدين، وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله منه، ونظفر بما وعد الله عباده المؤمنين المتقين(٨).

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحيل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم، إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها، ومعرفة حقيقتها(٩).

ذلك بأن علم السنن الإلهية «لا يشكل لنا وقاية من الأزمات والإصابات التي يمكن أن تلحق بنا بسبب جهلها أو تجاهلها ومحاولة تجاوزها وحسب، وإنما فقه السنن يشكل لنا دليلا للتعامل مع الأزمات وكيفية إدارتها بعد وقوعها، وتجنبها قبل وقوعها»(١٠).

ومن هذا المنطلق فإن علم السنن الإلهية هو السبيل الأمثل لفهم الظواهر الاجتماعية وحركة التاريخ وفاعلية الإنسان فيه، وبقاء الأمم واندثارها، وهو المهيع الصحيح لفهم الحياة المعاصرة، ووضع الخطط الناجحة للخروج من الركود والعجز الحضاري وتصحيح المسار والرقي إلى مكان الصدارة والريادة، وتحقيق الدورة الإنجازية الكبرى والشهود الحضاري..

إن العلم بالسنن الإلهية والتعامل معه بوَعْي وعلى بصيرة من شأنه أن يخلص الأمة من أغلال الذرائعية، وقيود الاتكال، وآصار الفكر الإرجائي، وأن يسددخطاها على منهاج الوصول إلى التمكين في الأرض، وتحقيق وظيفة الاستخلاف الإنساني، والعمران البشري في الأولى، والفوز والنجاة في الآخرة.

فاكتشاف «السنن الإلهية والوعي بقوانين حركتها هو الذي يحقق سيطرة الإنسان عليها، ويجعله قادرًا على مغالبتها وتسخيرها في أداء الأمانة التي استخلفه الله للنهوض بها، بينما الغفلة عن هذه السنن، وغيبة وعيه عن قوانين حركتها، هي التي

تجعله ضحية لهذه القوانين التي لا تبديل لها ولا تحويل»[١١].

يقول سيد قطب – رحمه الله– إن: «النواميس التي تحكم الحياة جارية لا تتخلف والأمور لا تمضي جزافًا، إنما هي تتبع هذه النواميس، فإذا هم درسوها، وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث، وتبينت لهم الأهداف من وراء الوقائع، واطمأنوا إلى ثبات النظام الذي تتبعه الأحداث، وإلى وجود الحكمة الكامنة وراء هذا النظام، واستشرفوا خط السير على ضوء ما كان في ماضي الطريق، ولم يعتمدوا على مجرد كونهم مسلمين لينالوا النصر والتمكين، بدون الأخذ بأسباب النصر، وفي أولها طاعة الله وطاعة الرسول»[١٢].

ومن ثم فالمنهج السنني يرقى بالإنسان، ويزيد من خبراته ومعارفه وكسبه وإبداعه، ويحمي رحلة الإنسان من الخلل والخطأ والانحراف[١٣].

وتأسيسا عليه؛ فإن علم السنن الإلهية يقدم لنا رؤية كلية شمولية متكاملة عن الكون والحياة، ويأخذنا في الاتجاه الصحيح ويجعلنا على الصراط المستقيم، وينقلنا من ترديد آيات لا تدرك مغازيها إلى وعي سنني يعقبه عمل وتطبيق، وينقلنا من النظرة الجزئية للوحي إلى النظر الكلي المقاصدي المنضبط الذي يكشف لنا ما وراء نصوص الوحي من سنن إلهية ومن حكمة الحكمة لمن يدبر شؤون الأرض والسماء، وما وراء ذلك من قدرة واجب الوجود خالق الخلق ومدبر شؤونهم[١٤].

ومن ثم فإن الوعي السنني يثمر فعالية فكرية ونفسية وروحية وسلوكية واجتماعية، ويحقق مداولة ومنعة حضارية، ورقيًّا عقليًّا وفكريًّا وروحيًّا وأخلاقيًّا واجتماعيًّا للإنسان– فردًا وجماعةً وأمةً وعمرانًا–، ويرتقي به إلى مرتبة الخلافة في الأرض، وإلى مرتبة الإنسان الصالح الذي يسعد في الآخرة.

٤ـ مرتكزات علم السنن الإلهية ومنهج استمداده:

أ)– مرتكزات علم السنن:

يقوم علم السنن الإلهية على خمسةمرتكزات:

أولها: الفقه الصحيح لنصوص الوحي (قرآنا وسنةً) الدالة على السنن الإلهية.

إن علم السنن الإلهية يقوم على فهم الوحي الرباني في عالميته وشموليته ووحدة موضوعيته وتناسبيته وعطاءاته المستمرة، وفي علاقته مع الوجود الكوني بأسره. فهو الفقه الأكبر الجامع لفقه الكون والاجتماع والتاريخ والإنسان.

ذلك بأن الاستثمار الفقهي الفروعي لآي القرآن الكريم لا يتجاوز خمس مئة آية، في حين أن الفقه الأكبر (علم السنن) يدعو إلى الاستثمار الكلي لآي القرآن الكريم –(٦٢٣٦ بالعد الكوفي–٦٢١٤ بالعد المدني)–، التي تقدم لنا فقها سننيا شموليا كليا لحركة الاستخلاف البشري في الحياة خاصة، وحركة الوجود الكوني عامة.

وثانيها: دراسة سلوك الإنسان وطبائع النفس البشرية ووقائع التاريخ وسير المجتمعات وحركة الوجود من منظور الفقه السنني المستلهَم من الوحي.

فبعلم السنن نتعرف حقيقة الكون والإنسان

منشأ ووظيفة وحركة ومصيرًا، ونقف على النواميس الكلية التي تفسر لنا الصيرورات الدنيوية والأخروية لحركة الاستخلاف البشري في الأرض، والأبعاد السلوكية والمعرفية والعقدية والاجتماعية والعمرانية الحضارية لذلك كله، كما يقدم لنا علم السنن تحليلا موضوعيا تكامليا عميقا للظواهر والأحداث الكونية والاجتماعية.

وثالثها: مراعاة المقاصد الكلية للوحي الرباني وما يحقق للناس من مصالح في المعاش والمعاد.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية –رحمه الله-: «إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه، وعلى صدق رسوله أتم دلالة وأصدقها»(١٥).

والسنن الإلهية هي القسم الأكبر والأساس من الشريعة؛ لذلك راعت المقاصد الكلية للوحي المتجلية في حفظ مصالح الخلق في الحياة الدنيوية والمصير الأخروي...

ورابعها: السعي إلى تحقيق الشهود الحضاري وبناء العمران البشري والنهوض بأمانة الاستخلاف. ذلك بأن الله تعالى ناط بالإنسان أمانة القيام بأعباء الاستخلاف وعمارة الأرض، وحمله المسؤولية عن حسن الأداء؛ وهذا التكليف لا يتحقق إلا بإدراك المنهج الرباني الذي وضعه الله وأعطاه للأشياء جميعا بما فيها الإنسان، وهو المنهج السنني.. وإن أي تقصير أو خلل ينتاب الحياة أو يعجزها عن النمو أو يصيبها بالارتكاس إنما هو ناتج عن عدم إدراك هذا المنهج وعدم إعماله أو التعامل معه بفقه ووعي(١٦).

وخامسها: تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى والإخلاص فيها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وقوله جلّ وعلا: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:١٦٢]. ذلك بأن الوعي السنني لا يقف عند حدود معرفة سنن الله في الأنفس والكون والمجتمعات؛ بل يتجاوزها إلى ما بعد السنن من حكمة الحكمة ومقصد المقاصد، وتدبير الحكيم العليم، ومشيئته النافذة في خلقه، وقدرته العظيمة في التصرف في الكون وتنظيم شؤونه.. لنعرفه بها معرفة تزيدنا منه قربًا وله حبًّا، ونوحده ونعبده وحده مخلصين له الدين..

ب)- منهج الاستمداد السنني:

إن معرفة الوحي هي سبيل تعرف العلم السنني بشكل عام، وكشف سنن الأنفس واطرادها، ولفت النظر إلى سنن الكون، وجعلها منوطة بمعرفة العقل لتسخيرها.

فالوحي الإلهي يرسم خارطة الحياة، ويبصّر بأهدافها وغاياتها، ويحدد مقاصدها وأبعادها، ويبين السنن التي تحكمها أمام السالكين، ويشكل بوصلة

الهداية لها؛ والعقل يبتكر أدوات المسيرةووسائلها ، ويــضع الــبرامج، ويكتــشف المنــاهج والــسنن ويستوعبها ويسخرها ويغالبها، ويتعامل معها على أنها أقدار الله وتدابيره وأنظمته للكـون، وسـننه الناظمــة لمــسيرته، حيــث لا مجــال للعبــث أو الصدفة(١٧).

وبناء على ما تقدم؛ فإن منهج الاستمداد السنني يقوم النظر والتدبر والقراءة الواعية للوحي الرباني (الكتاب المسطور) الذي أسس لعلم السنن، وقدم خريطة مقاصدية اجتماعية حضارية قيمية ورؤية شمولية كلية متكاملة عنه.. موازاة بالنظر في الآيات الآفاقية الكتاب المفتوح (الكون) عن طريق التجربة والملاحظة والاستقراء.

كما يقوم بعد ذلك وانطلاقا من نور الوحي على الإفادة من التاريخ الاجتماعي والحضاري وآثار الأمــم الغــابرة ورســومها. إذ الــوحي مــصدرها، والــسير في الأرض وتــاريخ الأمــم والحــضارات مختبرها.

مسك الختام:

وفي الختام نؤكد ما يلي:

- إن الوحي الرباني لا يستعيد مكانته المركزية في نفوسنا وحياتنا إلا إذا تمكنا من الوعي بالسنن التــي قررهــا وجعــل الحيــاة البــشرية لا تــستقيم إلا بها.ولا يتحقق هذا إلا بتأسيس علم السنن الإلهية والوعي العملي به.

- إن القــرآن الكــريم منهــاج الهدايــة ودليــل الحياة؛ ومعرفة ما بيَّنه من سنن إلهية كونية وإنسانية ودينيــة. هــي المنطلــق والإطــار والمرجــع لرحلــة الإنسان، وموجّه تفكيره وتصوره وسلوكه وحركته في الحياة وسيره إلى الله.

والحمد لله رب العالمين.

* * *

الهوامش:

(١) ينظر كتاب السنن الإلهية في السيرة النبوية، رشيد كهوس، دارالسلام بمصر، ص٤٦. وكتاب علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، منشورات مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث بدبي، ص٧ وما بعدها.

(٢) المدخل السنني إلى خريطة المقاصد الكلية في القرآن الكريم، الطيب برغوث، ص٣٧.

(٣) رمضان خميس زكي الغريب، فقه السنن الربانية ومدى إفادة المسلمين منها قراءة في فكر الإمام محمد عبده، ص٣٩.

(٤) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس، ص٦٧.

(٥) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ٩٥/٥. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١١٥/٤،١١٤.

(٦) من فقه التغيير ملامح المنهج النبوي، عمر عبيد حسنة، ص٩٤-٩٥.

(٧) من تقديم عمر عبيد حسنة لكتاب الإسلام وصراع الحضارات، لأحمد القديدي، ص١٢-١٣.

(٨) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، لعبد الكريم زيدان، ص١٧.

(٩) الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، محمد عمارة، ٩٥/٥. تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١١٥/٤،١١٤.

(١٠) المنهج السنني، لعمر عبيد حسنة، ص٧٤.

(١١) المذهب الإصلاحي للإمام محمد عبده، محمد عمارة، ص٧٦.

(١٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب، ٤٥٠/١.

(١٣) المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، ص٣٣.

(١٤) ينظر: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، دار الكلمة بمصر، رشيد كهوس، ص٥١.

(١٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ١١/٣.

(١٦) المنهج السنني أفق حضاري متجدد، عمر عبيد حسنة، ص٩.

(١٧) نفسه، ص٢٢.

مهمة الإعلام الإسلامي

بقلم: الأستاذ/ عبد الرحمن نموس

ليست مهمة الإعلام الإسلامي إلا تبليغ رسالة الإسلام وتوضيح صورتها أمام من جهلها والذود عنها ضد من عاداها وما كان رسولنا الكريم إلا مبلغًا لهذه الرسالة عندما نزلت من السماء وفق الأمر الإلهي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وإن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي القَوْمَ الكَافِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧]. فنهض صلوات الله وسلامه عليه في أداء المهمة، وقام بإبلاغ الرسالة حتى أتاه اليقين وقد شهدت له أمته بذلك. ففي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال في خطبته يومئذ: «يا أيها الناس إنكم مسؤولون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللّهم اشهد (ثلاث مرات).

وإذا كان الرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو قدوتنا وأسوتنا ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ والْيَوْمَ الآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]. وإذا كانت الرسالة قد أنزلت للناس كافة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨] وإذا كنا مطالبين بقوة بالاقتداء بالرسول الكريم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وفي نشر هذه الرسالة والحفاظ عليها، فإن ذلك يتطلب منا أن نبذل أضعاف ما نبذل من الجهد، وأن ننهض للذود عن أنفسنا وعن المليار مسلم الذين عبث بهم السيل ما عبث، وعن الدين الذي ارتضاه ربنا لنا وبه صرنا المسلمين.

وللإعلام -الذي يمكن أن يسمى «تخصيصًا» بالعملية الإعلامية، من حيث البث والاستقبال وأدوات البث- عدة عناصر:

أ- رسالة تشكل محور العملية الإعلامية.

ب- مرسِل يقوم على بث هذه الرسالة.

ج- وسيلة يتم بها الإرسال.

د- مستقبل هو المستهدف من هذه الرسالة.

والرسالة: هي مجموعة الأفكار التي يتم التعبير عنها بإشارات لغوية تكون في الغالب على شكل أحرف أو كلمات تتحول إلى جمل مفيدة تترك أثرًا في نفس مستقبليها سلبًا أو إيجابًا، ويسعى المرسل من خلالها إلى تحقيق هدف معين.

أما المرسِل: فهو الشخص الذي يبث الرسالة الإعلامية عبر وسيلته المناسبة بغية تحقيق أهداف معينة قد تكون تعزيز مبادئ وأفكار معينة، أو تعديلها، أو محاربتها، أو تأييدها. ومستقبل الرسالة

هو كل من يتلقاها وتترك فيه انطباعًا ما، سلبًا أو إيجابًا، أما انعدام الأثر بالكلية بالنسبة للمستقبل فلا يعد استقبالًا لها ولو سمعها أو قرأها، لأن للتفاعل معها دورا أساسيًا. والوسيلة هي الشيء الذي يتم من خلاله نقل الرسالة، كالصحيفة أو المذياع.. ويختار المرسل عادة الأسلوب الذي يراه جيدًا لإيصال رسالته إلى أذهان مستقبليها وهو في ذلك لا يخرج عن أحد الأساليب الثلاثة التالية:

١- التعرض للفكرة أو الظاهرة المطروحة في الرسالة من خلال بعدها الوصفي، كأن يتناول ظاهرة اجتماعية معينة ويصفها وصفًا دقيقًا من خلال واقعها، دون أن يزيد على ذلك أو يضع آراء من عنده تبين سلبية أو إيجابية هذه الظاهرة، وبالتالي يترك القرار النهائي للمستقبل في أن يستوعب هذا الوصف ويقيمه من منظوره الخاص، ويخلص إلى نتيجة هذا التقييم بنفسه دون تدخل مباشر من المرسل، الذي قد يلجأ إلى الإيحاء الخفي في إبداء ما يريده من وصف تلك الظاهرة.

٢- التعرض للفكرة من خلال بعدها الوصفي مع إضافة تقييم موضوعي لهذا الوصف، وذلك بأن يتعرض المرسل للفكرة أو الظاهرة فيصبغها الوصف الدقيق كما في الفقرة الأولى ثم يتبع هذا الوصف بتقييم موضوعي يبين فيه الجوانب المضيئة في الظاهرة والجوانب المظلمة، وقد يجري موازنة بين هذه وتلك ثم يتوقف تاركًا للمستقبل التوصل إلى النتيجة التي يريدها هو ويريد للمستقبل أن يصل إليها. أو قد يزيد على ذلك بأن يقدم النتيجة التي وصل إليها بعد التقييم ... بنفسه، ولكنه يترك للمستقبل حرية الالتزام أو عدم الالتزام بها.

٣- التعرض للفكرة أو الظاهرة وتبيان أبعادها ولو بصورة موجزة ثم التزام موقف حيالها وحض أو تحريض المستقبل صراحة على تبني موقف المرسل من الظاهرة.

وذلك بأن يعرض المرسل الظاهرة أو الفكرة من منظوره الخاص ويقيمها ويصل إلى نتيجة ويؤكد أن نتيجته هي الصحيحة وما سواها خطأ، ويلزم بالتالي المستقبل على الأخذ بما قدمه له على أنه الصحيح ولا يترك له الحرية للتفكير جيدًا بها؛ بل قد يهمل المرسل الذي يلجأ إلى هذا الأسلوب الوصف والتقييم الموضوعيين، ويقدم النتيجة التي يريدها، ويضع لها من المبررات ما يشاء حتى يقنع المستقبل بها، ويحضه على تبنيها، الأمر الذي قد يصل إلى حد ازدراء آراء المستقبل وخلفيته الثقافية وقدراته على تقييم الظواهر والأفكار مما يؤدي بدوره إلى رد فعل سلبي عند المستقبل قد يجعله في الموقف المضاد -إن استطاع- وفي موقف السكوت على مضض إن لم يستطع.

ويخرج عن هذا الضبط القرآن الكريم بما فيه من منهج إعلامي رباني، ولأنه كلام الخالق وليس كلام بشر يستوي فيهم المرسل والمستقبل، ففي القرآن الكريم الحكمة والموعظة الحسنة، وفيه الجدال بالتي هي أحسن، وفيه الترغيب وفيه الترهيب، وفيه الوصف، وفيه التحريض، ومثل

ذلك السنة النبوية، فالرسول -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وإن كان بشرًا لكنه بالإضافة إلى ذلك هو نبي مرسل ﴿ومَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إنْ هُوَ إلاَّ وحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم:٣-٤].

أما ماخلا أسلوب القرآن العظيم والسنة النبوية الشريفة فيكون من المناسب أن لا يشعر مرسل الرسالة الإعلامية مستقبلها بأنه من طبقة أدنى مستوى أو أقل فهمًا حتى لا يجعله عرضةً للمواقف المبنية على ردود الأفعال. وهنا تبدأ أهمية شخصية المرسل في اختيار الأسلوب الإعلامي الأنجع الذي يمكن ممارسته تجاه مستقبلي الرسالة، خصوصًا وأن عددًا لا يستهان به من المستقبلين لا يستقبل رسالة المرسل وحده؛ بل يستقبل رسائل من ألوان شتى تجعله يعيش في بحر متلاطم الأمواج من المعلومات الصحيحة والخاطئة، الغثة والسمينة تجعلهم يتيهون بين الخطأ والصواب ويتعثرون في الاهتداء إلى القيم من غيره. والإعلام الإسلامي وسط هذا البحر الكلامي الهائج هو الأقدر على أن يمثل نقاط العلامة البارزة التي تهدي الحائر من عامة المسلمين أو غيرهم إلى الطريق الصحيح، وهو إذ يفعل ذلك لا بنوعية الورق ولا بحجم الكلام المكتوب أو كمية البث المسموعة؛ بل بالإنسان المرسل الذي أوكلت إليه مهمة الإرسال أيًا كانت الطريقة.

وهذا ما يؤكد على أهمية المرسل في العملية الإعلامية، لذا فمن المناسب بيان أهم الصفات التي يتحلى بها المرسل الإسلامي الناجح، وهي:

أ- الأسوة الحسنة: وتكون الأسوة الحسنة من وجهين:

الأول: أن يتأسى المرسل أو على الأقل أن يجتهد للتأسي بأخلاق وأسلوب الرسول الكريم -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في التبليغ والدعوة وغير ذلك فهو المشهود له بالأخلاق العظيمة من رب العالمين ﴿وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:١٤] وهو القائل -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «بعثت لأتمم حُسْنَ الأخلاق»[1] والله سبحانه وتعالى حضَّنا على أن نتأسى برسولنا الكريم بقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب:٢١].

والثاني: أن يكون المرسل بتحقيقه للبند الأول أسوة حسنة لمن يبلغهم رسائله، لأنه إن تخلت عن هذا المعنى فلن يجد الأذن الصاغية لكلمته أو العين القارئة لعبارته، ويكون إضافة لذلك قد تخلف عن جوهر أساسي يدعو إليه في رسائله و وقع فيمن وصفهم الله عز وجل بالمقت في قوله: ﴿يأَيُّهَا الَذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٣-٤].

ويدخل في إطار الأسوة الحسنة انسجام القول مع العمل كما بينت الآية الكريمة، إذ يشكل هذا الانسجام بين القول والعمل نقطة أساسية تعين المستقبل الذي يستقبل كمًّا هائلًا من المعلومات المختلفة التي تدعو إلى تبني أفكار ونظريات شتى على اختيار الأسلم والأصح، وتجعله يكبر ويحترم الرسالة التي أخلص لها مرسلوها وانسجموا معها فجاءت نابعة من القلب قابلة لأن ينسجم معها المستقبلون.

وحقيقة نواجهها جميعًا هي أن الكثيرين لا يميزون بين حقيقة الإسلام وبين المسلمين إذ يرون الإسلام فيهم، فإن أساءوا كانت الإساءة للإسلام والعكس صحيح.

٢- أن يتخلق المرسل الإسلامي بأخلاق القرآن اقتداءً بالرسول الكريم -ﷺ- الذي قالت عنه عائشة -رضي الله عنها-: «فإن خلق نبي الله -ﷺ- كان القرآن»[٢]، وعندما يتحقق ذلك بالمرسل يكون قد امتلك زمام الأمر تجاه مستقبلي رسالته بحيث يجدون أنفسهم أمام إعلام ملتزم منسجم لا ينبني على مراوغة ولا على دجل، الأمر الذي يسهل لهم ويمهد سبيل الاقتناع بالرسالة وتبنيها. ويوضح لهم الفارق بين الرسالة الإسلامية الواقعية والرسائل الأخرى التي بنيت على نظريات من خيال ... أصحابها ولم تنجح بحال - في معالجتها لمشاكل الإنسان- من الإفراط أو التفريط.

٣- الإيجاز والبيان وعدم الإلحاح: فالكلام الكثير ينسي بعضه بعضًا وتضيع قيمته بذلك، أما الإلحاح والكثرة فقد تسبب السآمة للنفس، فعن أبي وائل شقيق بن سلمة قال: كان ابن مسعود - رضي الله عنه- يذكّر الناس في كل خميس مرَّة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن: لوددت أنك ذكَّرتنا كل يوم، قال: «أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يتخولنا بها مخافة السآمة علينا»[٣].

والتكرار الذي قد يظن صاحبه أنه من الأدب والبلاغة قد يكون تكرارًا غير محمود يجعل ما دخل في القلب يتطاير مرة أخرى، وما قبلَتْه النفس وهو جديد تعافه نتيجة التشدق به والإعادة.

٤- عدم استخدام وسيلة الإرسال أيًا كانت كمنبر للردود الشخصية أو الهجمات اللاذعة غير المبنية على أساس علمي واضح، إذ يجب أن تسمو الوسيلة الإعلامية عن ذلك وتترفع، مستمرة في أداء رسالتها الأصلية وفق منهجها الواضح؛ فللشريعة أساسياتها المتينة والثابتة التي منها ينطلق العمل الإعلامي والدعوي، وأما مما اختلف فيه من نقاط على الدرب فتعالج بالأساليب الخاصة بها من غير التعرض والتعرض المضاد في الوسيلة الإعلامية، حتى تحافظ هذه على مستوى رفيع من الأخلاقية الإسلامية، التي منها يستنشق المدعو أو المستقبل رائحة الرسالة الناجحة الهادفة.

٥- إن الرسالة الإعلامية الإسلامية تعتمد على خصائص ثابتة تمثل خصائص الشريعة نفسها من ثبات وشمولية وواقعية ومرونة وصلاحية، وبالتالي فإن مضمون الرسالة ينطلق في هذه الخصائص، ولكن سر نجاح أو فشل تلك الرسالة يرتبط بمقدار معرفة وخبرة المرسل بمستقبِلي رسالته، هذه المعرفة والخبرة التي تمكنه من أن يقدم لكل جمهور مادته المفضلة عبر وسيلته المفضلة، وواضح أن لكل وسيلة جمهورها ولكل رسالة مستقبليها، والخبرة والفراسة في ذلك هي سر النجاح، إذن: إن إساءة الاستخدام في هذه النقطة تؤدي إلى نتائج عكسية غير ما يتوخاه المرسل.

٦- المعرفة الجيدة بالإعلام المضاد

وبمخططاته والعمل على صدها وردها بالأدلة العلمية الدامغة لا بالهجمات الكلامية الفارغة؛ لأن المستقبل الذي اعتاد أن يستقبل رسالة واضحة مدللة بأدلتها التي تدحض فيها ظاهرة أو تؤيد فكرة يجد من غير المألوف ومن غير المقنع أن يلجأ المرسل إلى مجموعة عبارات محشوة بالشتم والسباب على الإعلام المضاد؛ لأنه تصرف كذا أو وقف موقف كذا، دون أن يبين المرسل إلى أي شيء استند في موقفه، وعلى أية أدلة ارتكز في مواجهته. إن المستقبل الذي يستقبل الرسائل الإعلامية الإسلامية قد وعى تمامًا ماذا يعنيه طرح الشعارات الرنانة التي تدين اتجاهًا أو فكرًا أو ظاهرة، أو تؤيد ذلك الاتجاه أو الفكرة أو الظاهرة، وهو اليوم بحاجة إلى منهج إعلامي واعٍ تحمل رسائله له ما يريح النفس ويقنع العقل، ويواجه الأعداء الذين لا ننتظر منهم السكوت بالأدلة القادرة على إسكاتهم، والبراهين الباترة لادعاءاتهم.

٧- معالجة الأخطاء التي يتعرض لها المرسل خلال بث رسائله بهدوء وتروٍ وبصيرة؛ لأن الاعتماد على الإصلاح العاطفي أو المبني على ردود الفعل العصبية سيؤدي بالضرورة إما إلى الإفراط أو التفريط، ومن هنا وجب الحذر والدقة في معالجة أخطاء المرسل، مع وضع قاعدة (كل ابن آدم خطاء) بالحُسبان. وبعد هذا الاستعراض الموجز لأهم صفات مرسل الرسالة الإعلامية الإسلامية؛ لابد من الإلماع إلى أهم العقبات التي تقف حجر عثرة في وجه تقدم تلك الرسالة، أو على الأقل تعيق تقدمها بشكل ملحوظ.. ومن ذلك:

١- عدم الالتزام الفعلي والجيد بالمنهج الرباني الموضوع لنا، ويبدو ذلك واضحًا من خلال تناقض الكثيرين من أصحاب الرأي المستنير بين قول وعمل.

ومن ذلك: أن تقع بأيدي بعض الشباب محاضرة أو موضوع عن الغيبة والنميمة وأثرهما السلبي في البناء الإسلامي، ثم ما نلبث أن نصل إلى نهاية المحاضرة أو الموضوع حتى نرى لمزًا أو غمزًا بشخصيات إسلامية من مستوى صاحب المحاضرة أو أعلى مستوى. إننا نهاجم فعلًا معينًا وفق نصوص وأدلة شرعية واضحة، ثم نأتي على ارتكاب ذلك الفعل، متخذين لأنفسنا مبررات تقنعنا بضرورة خوض ذلك الغمار، جهلًا أو تجاهلًا، أو اتخاذ أعذار قد تقنعنا ولا تقنع أحدًا غيرنا، ولربما لم تقنعنا أصلًا ولكننا تصنَّعنا الاقتناع.

٢- الاستهانة ببعض المخالفات الشرعية أمام أكذوبة (ضرورات العصر) فالإعلام الإسلامي إعلام عقائدي يتمثل بقواعد ومبادئ راسخة ينمو بنائها ويزدهر بازدهارها في أنفس المسلمين، ولكن بعض هذه المبادئ أو القواعد قد يتم نقضها بحجة «ضرورات العصر» أو لأنها أمور صغيرة هنالك ما هو أهم منها بكثير، أو لأن البعض يعتقد أن نمو الإسلام وتقدمه لا يتوقف عليها.

وأمثلة بسيطة على هذه الأمور:

(التصوير، التدخين، حلق اللحية بغير ضرورة ملجئة، الاختلاط أحيانًا) علمًا أن هذه الأمور جميعًا تخل بسلوك المسلم إخلالًا كبيرًا، شعر بذلك أم لم

يشعر، اعترف بأثرها السلبي أم لم يعترف. وإذا كان لمثل هذه الأمور أثرها السلبي في نمو شخصية أي مسلم، فكيف يكون أثرها بالنسبة للقائم على توجيه الرسالة الإعلامية الإسلامية..؟! إنه تساؤل جدير بالإجابة. ولكل قارئ أن يجيب بنفسه.

٣- النقص العام وعدم التكامل في التوجيه:

يبدو واضحًا أن أغلب الرسائل الإعلامية الإسلامية تتوجه هذه الأيام إلى المواعظ المتعلقة بالأعمال العبادية المحضة، وبالرغم من ضرورة هذه وموقعها الأساسي في الإعلام الإسلامي فالواجب عدم الاقتصار عليها، فالإسلام دين متكامل يتسع لكافة أمور الحياة، وبالتالي يلزم تنوع الرسائل بتنوع المستجدات وحسب أولويات مدروسة.

إضافة إلى ذلك: فإنه من المفيد جدًا وضع خطط يتم تنفيذها وفق جداول زمنية معينة وبعد دراسة موضوعية شاملة، بحيث تؤدي هذه الخطط في النهاية إلى النتيجة التي يتوخاها المرسل.

أسباب نجاح العملية الإعلامية:

مما تقدم يتبين، أن الإعلام الإسلامي يعاني عقبات عدة تستلزم بالضرورة العمل الجاد لإزاحتها والتغلب عليها، وربما كان الخوض في هذا المجال خوضًا في مجال واسع لا يسعني عرضه مفصلًا هنا، ولكن أعرض بعض النقاط التي إنما تعبر عن وجهة نظرٍ، أدعو الله أن تلاقي القبول.

١- اختيار الكفاءات الصالحة والقادرة على القيام بهذا العبء: فمعلوم أن القائم على العملية – وخصوصًا توجيه الرسائل- هو العنصر الأهم فيها، وبالتالي فإن العمل على إنجاح هذه العملية يستوجب أن يكون القائم عليها أهلًا للمهمة من حيث المستوى العلمي والإدراكي، ومن حيث النظرة الشمولية لمتطلبات العمل، والأفق الواسع الذي يمكن من وضع المخططات التي تضمن أحسن النتائج.

إن العلاقة التي يمكن أن تقوم بين المرسل ومستقبلي الرسالة علاقة تحتاج إلى مزيد من الدقة في التعامل، فالمستقبلون يتلقون الرسائل فينسجمون مع بعضها ويحبون بعضها ويمتعضون من قسم منها، وقد تثور ثائرتهم على جزء منها نتيجة خلفية خاطئة عنها أو جهل مستعص بها، فكيف يتعامل القائم مع ذلك الاختلاف؟!

إنه أمر خاضع -بالإضافة إلى العلم والإدراك وسعة الأفق- إلى مقومات شخصية تستطيع أن تستوعب هذا الاختلاف المؤقت وتحيله انسجامًا ووحدة في النظر عند الجميع حتى يتشكل عند المتلقين جميعًا، شيء أهم من الرأي العام وأرفع، وربما كان الصبر الطويل واحدًا من مقومات تلك الشخصية.

٢- تحري الدقة التامة بمصادر بعض الرسائل الإعلامية:

إن المصادر الأساسية لرسالة الإعلام الإسلامي مصادر موثوقة بذاتها كالقرآن الكريم والسنة النبوية، ولكن الأمر يختلف عندما تعترض العمل أحداث مستجدة لابد من طرحها وقضايا معاصرة لابد من معالجتها، فمن أين نأتي بالمصادر

الموثوقة لمثل ذلك؟

هل نعتمد على وكالات الأنباء العالمية ونكون بذلك مروجين لكذبها وإشاعاتها؟ أم نعتمد على ما تتناقله بعض الوسائل الإعلامية الأخرى من غير فحص ولا تحرٍ ولا تدقيق؟

أم يكون لنا تميزنا بهذه وتلك، واستقلالنا بالعرض والتحليل دون تأثر أيضًا بهذه وتلك؟. فالغلط أو الكذب في وسيلة الإعلام الإسلامية لا يتساوى أبدًا مع الغلط أو الكذب في أي وسيلة إعلام أخرى؛ بل هي أضعاف ذلك، لأن الغلط وإن كان مبررًا شرعًا فهو غير مبرر في الغالب عند المستقبل؛ بل هو أحيانًا لا يريد أن يبرر؛ لأن الغلطة غلطة موجِّهه وليست غلطة تلميذه.

أما الكذب بالإضافة لكونه خرقًا للشريعة هو عمل سلبي كبير، يراه المستقبل وصمة تهز كيان الاستقبال عنده، وفي هذا خطر لا يخفى. ولتلافي ذلك لابد من الركون إلى مصادر مؤهلة ثقة وصدقًا وإدراكا وتحليلًا، تعين المستقبل على تلقي رسالة صادقة متميزة.

٣- وضوح الهدف: إن معرفة ما يريده المرسل من رسالته بوضوح، ومعرفة كيفية بث الرسالة بالشكل الذي يحقق له ما يريده أمر غاية في الأهمية، فإذا كان هدف الإعلام الإسلامي إعداد الجيل العقائدي الواعي الذي يفهم الإسلام على أنه دين عبادة وعمل، وشرْع دنيا وآخرة، ومنهج حياة متكامل، فإن عليه أن يعد لإيجاد هذا الفهم في أذهان المستقبلين، علمًا أن هذا عملٌ غير سهل في إطار التنوع الإعلامي وتعدده، ولكن عدم السهولة لا تعني الاستحالة، فباعتماد أسلوب العمل المنظم والصحيح يتمكن المرسل -بإذن الله- تحقيق هدفه، وتبدو أهميته واضحة للتكامل في بث الرسائل في هذا المجال.

فعندما يكون لكل رسالة إعلامية على حدة هدف خاص تسعى لتحقيقه من خلال منهج مرسوم لا من خلال تعبئة صفحات أو سد فراغ في برنامج مسموع، وعندما تلتقي أهداف هذه الرسائل في محصلة عامة من غير تناقض، ساعيةً إلى إيجاد الشخصية المتكاملة، وعندما يتحقق الانسجام الكامل بين الأهداف الجزئية المرسومة لكل رسالة على حدة، والهدف العام الذي يجب أن تلتقي عنده كافة الرسائل لتصب في توجه فكري معين، نكون قد خطونا خطوة هامة في العمل على تحقيق الشخصية الإسلامية المتكاملة عند متلقي الرسالة.

ويبقى لمقدار استجابة المتلقي نفسه، ولمقدار تأثير المرسل بالمتلقي حتى يجعله متكيفًا أكثر من الاستقبال أثرٌ آخر في تحقيق الهدف المنشود. وربما كان هنالك عوامل جانبية أخرى لم يتسع المجال لذكرها.

* * *

الهوامش:

(١) الموطأ، كتاب حسن الخلق / ٨، قال ابن عبد البر: هو حديث مدني صحيح.

(٢) مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ١٣٩.

(٣) متفق عليه، والرواية للبخاري، كتب العلم، باب ١٢.

من تاريخ الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند

(الحلقة ٧٤)

بقلم: **الأستاذ/ سيد محبوب الرضوي الديوبندي -رحمه الله-**
(المتوفى ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م)
ترجمة وتعليق: **محمد عارف جميل القاسمي المباركفوري**(*)

مواعيد الدراسة:

كعادة المدارس العربية تتوزع مواعيد الدراسة في دارالعلوم على فترتين: فترة أولى: صباحية تستوعب أربع ساعات، وفترة مسائية تحتوي على ساعتين. وتبدأ الدراسة في الصيف الساعة السادسة حتى الساعة العاشرة صباحا، وتبدأ من الساعة الثالثة والنصف حتى الساعة الخامسة والنصف مساء. وأما في الشتاء فتبدأ الدراسة في الساعة الثامنة صباحا حتى الساعة الثانية عشرة ظهرًا، وتبدأ من الساعة الثانية حتى الساعة الخامسة مساء. والحصة الدراسية تضم ستين دقيقة في دارالعلوم/ ديوبند، وتختلف مواعيد الدراسة من حين لآخر نظرًا إلى تغير الطقوس. فمثلا من الساعة السادسة إلى الساعة السادسة والربع، ومن الساعة الثانية إلى الساعة الثانية والربع، ومن الساعة الثامنة إلى الساعة الثامنة إلا الربع، ومن الساعة الثالثة إلى الساعة الثالثة والربع، وهلمَّ جرًّا.

وتبدأ إجراءات القبول والتسجيل في شهر شوال إلى نهاية الشهر لتبدأ الدراسة اعتبارًا من بداية شهر ذي القعدة حتى شهررجب من العام. وتجري الاختبارات السنوية في شهر شعبان، وتستمر لمدة ثلاثة أسابيع، وتبدأ الإجازة العامة اعتبارًا من الأسبوع الأخير من شعبان حتى الأسبوع الأول من شوال. وتبدأ إجراءات القبول اعتبارًا من الأسبوع الثاني منه. ويوم الجمعة يوم إجازة أسبوعية.

شروط القبول:

دارالعلوم/ديوبند مفتوح بابها لكل طالب راغب في الدراسة الدينية، شريطة تناغمه مع الأهداف التعليمية لدارالعلوم/ديوبند ومقاصدها، ويرغب في الالتحاق بها على عزيمة صادقة على التقيد بقوانينها ولوائحها، ويعيش حياة منسجمة مع المثل الإسلامية. فإذا توفر في الطالب هذه الشروط والمواصفات تم قبوله في المرحلة التعليمية التي يستأهل للدراسة فيها.

وتستمر إجراءات القبول بصفة عامة اعتبارًا من الأسبوع الثاني من شوال حتى الأسبوع الثالث منه، وأما الطلاب المستجدون فيتم قبولهم قبل ذلك بقليل.

ويقبل الطالب المستجد عند إجراءات القبول

(*) أستاذ الفقه واللغة العربية وآدابها بالجامعة.

في المرحلة التعليمية التي يستأهل للدراسة فيها،ولايقبل الطالب على أساس شهادة حصل عليها من المؤسسات التعليمية الأخرى. ويستثنى من اختبار القبول الطلاب الذين درسوا في الصفوف الفارسية ثم ارتقوا إلى الصفوف العربية.

ويتم قبول الطالب في صف قراءة القرآن الكريم، والصفوف الفارسية على أساس طلب يقدمه الطالب، وأما الصفوف العربية فلايقبل إلا بعد تعبئته استمارة طبعت لنفس الغرض. واستمارات القبول على نوعين: خاصة بالطلاب القدماء، وخاصة بالطلاب المستجدين. و المراد بالطلاب القدماء من درس في دارالعلوم في العام الماضي، والمراد بالطلاب المستجدين من لم يدرسوا فيها في العام الماضي.

وبتعبئة استمارة القبول يتعهد الطالب بأنه سيقبل على الدراسة بجدية وانصراف كلي، ويتقيد باللوائح المتبعة في دارالعلوم/ديوبند كل الاتباع، وأنه يأخذ نفسه بمواصفات الطالب الديني في دله وصمته، وقعوده ونهوضه، ومطعمه ومشربه ونحو ذلك.

ولايقتصر القبول للدراسة في دارالعلوم على مرحلة عمرية خاصة، اللّهم إلا أنه لايقبل الطلاب الأحداث الأسنان الذين يعجزون عن القيام بشؤونهم الخاصة إذا نزلوا في السكن الطلابي. كما لايعوق مهنة أو حرفة من الحرف دون القبول في دارالعلوم/ديوبند، الأمر الذي يغلق باب الدراسة وتلقي العلم أمام شريحة من شرائح الأمة الإسلامية.

فكل من يحمل مسكة من الرغبة في طلب العلم، هان عليه كسبه من غير معوق. وأما التقييد بالمرحلة العمرية أو الحرفة والمهنة فظلت المدارس العربية حرة طليقة منها، كما لاتفرق بينهم على أساس اللون أو العرق أو الثراء والفقر أو التفاوت الاجتماعي. وعليه فالباب إلى تلقي الدراسة العليا مفتوح أمام كل واحد دائما بغض النظر عن انتمائه العرقي وضآلة دخله المادي. ويشهد تاريخ المسلمين العلمي بتوفر علماء وفضلاء فيهم ينتمون إلى الحرف العليا والدنيا. وغير خافٍ على دارس التاريخ أن مَن كان العالَم يغض الطرف عنهم ولايبالي بهم قاموا بخدمات ملموسة في المجالات السياسية والعلمية بعد أن تلقوا العلم ودرسوه في المدارس العربية هذه. والذي يعتبرون اليوم من معطيات أوربا يرجع فضل السبق إليه إلى هذه المدارس العربية.

المراحل الدراسية:

سبقت تفاصيل المراحل التعليمية في كتب المناهج الدراسية، فنحن في غنى عن إعادتها وتكرارها.

الاختبارات:

ليس من الميسور القول بأن المدارس كانت تشهد نظام الاختبارات بصفة عامة، إلا أن دراسة تاريخ بعض المدارس تشير إلى أنها كانت تجري اختبارات سنوية لطلابها، فيقول كتاب «تاريخ بستان السلاطين» عن أوضاع مدارس بيجا فور:

«يجري اختبار الطلاب بسلخ ذي الحجة»[1].

ويقول الكتاب نفسه مصرحًا بالاختبار السنوي: «يجري الاختبار السنوي»[٢].

وهذا النظام قد زال في الفترة القريبة من نشأة دارالعلوم/ديوبند، ولم تكن المدارس العربية تشهد الاختبارات: على ثلاثة أشهر أو ستة أشهر أو في نهاية العام التي كان خير سبب لاختبار استعداد الطالب وجده وجهوده في الدارسة. فكان الطالب يقرأ كتابا من الكتب، فإذا انتهى منه بدأ كتابًا آخر على شيخه دون أن يجري له اختبار. وغير خافٍ أنه لايوفر فرصة لاختبار مدى استعداد الطالب ومؤهلاته، فكان بعض الطلاب غير المؤهلين يتدرجون إلى الصفوف النهائية من غير أن يستأهلوا لها. وقد لمست دارالعلوم هذا النقص والعيب، فتغلبت عليها باتباع نظام الاختبار على كل ثلاثة أشهر، وستة أشهر، وفي نهاية السنة الدراسية.

والقواعد المتبعة في دارالعلوم/ديوبند فيما يخص الاختبارات صارمة وشديدة للغاية، ولامعنى للاختبار بدون حضور فصول الدراسة فيها.

وربما تمتاز مدارس «بيجافور» عن غيرها من المدارس الهندية بأنها كانت تجري اختبارًا سنويًّا، وأما غيرها من المدارس فلايذكر لنا التاريخ اختبارات سنوية فيها. ومن المؤكد تمامًا أن الفترة الزمنية المتاخمة لنشأة دارالعلوم/ديوبند لم تكن الهند قد عرفت الاختبارات السنوية.

لوائح الاختبارات:

الاختبار- الذي يعتبر محكا لمعرفة مدى استعداد الطالب وتهيئه وجده وتعبه، والذي يقوم على رفعه إلى الصفوف الأعلى من الصف الذي يدرس فيه - أمر لابد منه. وكرهت الجامعة التدخل الأجنبي في الاختبارات كما نأت بنفسها عن التدخل الحكومي. فمنهجها التعليمي من صنع يدها، وتقوم على الاختبارات بنفسها دون تدخل أحد فيها.

الاختبارات على نوعين: اختبار القبول، ويخص الطلاب الواردين من المدارس الأخرى للالتحاق بدارالعلوم، وهذا الاختبار يجري عادة في شهر شوال. ويتم بصرامة شديدة للغاية. وربما ردوا أكثر من نصف الطلاب الذين تقدموا للالتحاق بها لفشلهم في هذا الاختبار. والاختبار الثاني هو اختبار القراءة والدراسة. ويجري ثلاث مرات في العام: الاختبار على ثلاثة أشهر في شهر صفر، والاختبار النصف السنوي في شهر جمادى الأولى، والاختبار السنوي في نهاية شهر رجب، اعتبارًا من الأسبوع الأخير منه وينتهي في العشر الثاني من شهر شعبان.

وتجري الاختبارات تحت مراقبة أشد. وتجري الاختبارات الشفوية في كتب السنة الأولى والثانية، وبعض الكتب في السنة الثالثة. وأما المراحل الدراسية الْعُلْيَا فتجري فيها الاختبارت التحريرية. ويتم إعداد وطبع أوراق الاختبارات في غاية من السرية والحذر.

ويمتد الاختبار أربع ساعات، لكل طالب مقعده الخاص به، ومما يراعون مراعاة شديدة عدم إفساح المجال للطالب للتحدث والغش مع الطالب

بجـواره، وفي صـورة مخالفـة الطالـب ذلـك يُحـرم الاختبارَ.

الـــدرجات المحـــددة العليـــا في الاختبــــار (٥٠)درجة، وتفاصيلها فيما يلي:

الدرجة الأدنى ٣٠-٣٦، والدرجة الوسطى ٣٧-٤٣، والدرجة العليا ٤٤-٥٠.

ولايغيبن عن البال بهذه المناسبة أن المراكز التعليمية القائمة في الهند قبل نشأة دارالعلوم كانت في معظم الأحوال بمثابة مدارس شخصية، والأمر الذي يجمع بينها عدم نظام التعليم السنوي، و عدم توفر سجلات التحضير، ولاكان الطالب مضطرا إلى دراسة كتاب معين أو فن من الفنون على أستاذ بعينه، فكان الطالب حرًّا في اختيارالأستاذ الذي يرغب في الدراسة عليه و إلى المدة التي يرغب فيها، دون تحديد ذلك بزمن معين. ولاكان نظام الاختبارات المعروف، ويرجع الفضل إلى دارالعلوم في اختراع نظام التعليم السنوي، وتحديد مدة الدراسة، ولزوم التحضير، والاختبارات، و تناغم المواد الدراسية التي يتلقاها الطالب وغير ذلك. ومن هنا عرفت المدارس العربية هذه الأمور ونفذتها.

المنح الدراسية:

معظم طلاب المدارس العربية ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية الفقيرة والمعوزة، يعجز أولياء أمورهم عن إنفاق المال على تعليم وتربية أفلاذ أكبادهم، حتى يتزينوا بالعلم والمعرفة.

ويشهد تاريخ كل أمة راقية بأن سرَّ رقيها وازدهارها كامن في ثقافة أفرادها وأعضائها، ولايتم ذلك إلا إذا توفر نظام التعليم المجاني، فقد توصل خبراء التعليم في القرن العشرين بعد تجارب خاضوها قرونا من الزمان إلى ضرورة توفير التعليم المجاني للشعب. ومن الصعوبة بمكان عموم التعليم وانتشار الدراسة مالم يتم اتباع هذا المنهج. وأعظم ما يعيب التعليم الجديد أنه مختص بمن يكفل هو نفقاته، فكأن الفقراء لا مقام لهم في مجال تحصيل الدراسة العصرية.

وأما نظامنا التعليمي القديم فيحمِّل المؤسسات التعليمية نفقات الدارسة لا طلابها، فلايقبل هذا النظام التعليمي رسومًا دراسيةً على الإطلاق؛ بل يقوم بتوفير كتب المقررات الدراسية مجانا، كما توفر المؤسسات التعليمية للطلاب الفقراء المعوزين وجبات الطعام، واللباس والمنح النقدية لتغطية الحاجات الأخرى. وعنيت دارالعلوم/ ديوبند منذ اليوم الأول بتحمل نفقات الطلاب المعوزين: من السكن والطعام، واللباس والعلاج وغيرها من الحاجات اللازمة بدلا من تحميل الطلاب أنفسهم ذلك، اللّٰهم إلا إذا كان الطالب غنيًّا عن ذلك فيتحمل نفسه.

وكان لابد في إجراء المنح من مراعاة ألا يؤدي ذلك بالطلاب إلى الزهد في الدراسة، وتعوّد الأكل من غير كد، وحتى ينصرفوا بكليتهم إلى التعليم والدراسة فلاتجري المنح إلا لمدة سنة واحدة، ويتم

تجديدها في العام القابل، فإذا رسب الطالب في شيء من الاختبارات تم إسقاط منحته الدارسية، ولايتم إجراؤها من جديد حتى يحصل على معدل الدرجات المطلوب لذلك وفق قانون إجراء المنح الدراسية. وأما السكن، وكتب المقررات الدراسية الخاصة بالسنة الدارسية المصروفة من مكتبة الجامعة فيستمر من غير تفريق بين الطالب المستحق وغيره.

ولابد من توفر الشروط التالية لإجراء المنح الدراسية:

١. سبق أن درس الطالب كتاب «النحو الواضح» و«شرح التهذيب» وغيرها مما يتم تدريسها في السنة الدراسية الثانية.

٢. وحصل على مالا يقل عن (٣٧) درجة من مجموع (٥٠) درجة محددة. وهو الحد الأوسط للنجاح.

٣. يرغب في المنحة الدراسية من أجل فقره وبؤسه.

المنح الدراسية على نوعين: وجبات الطعام، والمنح النقدية.

ومطبخ الجامعة ينظم وجبات الطعام، فيصرف لكل طالب في وجبة واحدة رغيفين وزنهما (٢٥٠) غرامًا من الدقيق الجاف. ويوفر المطبخ في الغداة العدس مع الرغيف وفي المساء اللحم مع الرغيف[٣].

هذا، وتوفر دارالعلوم/ديوبند – علاوة على الوجبات الغذائية– المنح المالية المتفاوتة القدر، قد تبلغ خمسين روبية في كل شهر.

وهذان النوعان من المنح الدراسية يطلق عليهما في محيط دارالعلوم «الإمداد». يستلم الطلاب الذين يستحقون «الإمداد» أربعة أزواج من الثياب، وزوجين من النعال في السنة بالإضافة إلى اللحاف في الشتاء.

وتصرف منح شهرية للإضاءة في الحجرات وغسيل الثياب، وثمة أطباء لمعالجة المرضى من الطلاب، ويوفر مستشفى الجامعة الأدوية مجانا للطلاب، بالإضافة إلى طعام الحمية الذي يصفه الطبيب المختص للمريض منهم.

علاوة على ذلك تلتزم دارالعلوم/ديوبند إضاءةَ الممرات، وتوفير مضخات المياء في السكن الطلابي، وتوفير الماء الحار في موسم الشتاء بصورة مستمرة.

وتعير مكتبة دارالعلوم/ديوبند جميع الطلاب كتب المقررات الدراسية لمدة سنة واحدة بدون مقابل. ولاتتقاضى من الطالب أجرة السكن سواء كان يستلم «الإمداد»من دارالعلوم أو لايستحقه.

* * *

الهوامش:

(١) نقلا عن «مسلمانون كانظام تعليم وتربيت» (نظام التعليم والتربية الإسلامي) ١/٣٤١.

(٢) نفس المصدر.

(٣) وللطالب أن يستلم النقود بدلا من وجبة الطعام المصروفة من دارالعلوم.

* * *

فقه الدعوة إلى اللّه . . . رؤية تأصيلية

بقلم: د. محمد الدَّرْداري (*)

الدعوة إلى الله تعالى، وتبليغ شرعه إلى الناس، هي المهمة الأولى للأنبياء والرسل، وهي أعظم أمانة حملها البشر على الأرض منذ أن خلق الله تعالى الكون. ولقد تعرض هؤلاء في سبيلها لأشد أنواع التنكيل والعذاب، فقُتل منهم من قتل، وضُرب من ضرب، وسُجن من سجن، وألقي ببعضهم في النار... وهكذا.. فلم يزدهم ذلك إلا إصرارًا وإقدامًا، ولم يزد أعداءهم إلا تعنتا وتجبرا. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ (الأنعام:٣٥). وقال تعالى مخاطبًا بني إسرائيل: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة:٨٦).

ونبينا محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يكن بدعًا من الرسل، فقد نال حظه من ذلك، فكال له قومه من التهم حتى قالوا: إنه مجنون. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ (الحجر:٦). واتهموه بالسحر والكذب. قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ (الشورى:٣).

يقول ابن هشام متحدثًا عن اضطهاد كفار قريش للنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: قال ابن اسحاق: «فحدثني يحيى بن عروة بن الزبير، عن أبيه عروة بن الزبير، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: قلت له: ما أكثر ما رأيت قريشا أصابوا من رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فيما كانوا يُظهرون من عداوته؟ قال: حضرتهم، وقد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر، فذكروا رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفَّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا. لقد صبرنا منه على أمر عظيم، أو كما قالوا. فبينا هم في ذلك، إذ طلع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفًا بالبيت، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول. قال: فعرفت ذلك في وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-. قال: ثم مضى، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف، ثم قال: أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بالذبح.

قال: فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إنَّ أشدهم فيه وصاة قبل ذلك ليرفؤه (يهدئه) بأحسن ما يجد من القول، حتى إنه ليقول: انصرف يا أبا القاسم،

(*) باحث في الدراسات الإسلامية / المغرب.

فوالله ما كنت جهولا.

قال: فانصرف رسول الله -ﷺ-، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض: ذكرتم ما بلغ منكم، وما بلغكم عنه، حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه. فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله -ﷺ-، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به، يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا -لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم- فيقول رسول الله -ﷺ-: نعم: أنا الذي أقول ذلك. قال: فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع ردائه. قال: فقام أبو بكر -رضي الله عنه- دونه، وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله؟ ثم انصرفوا عنه، فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط»[1].

ومضى النبي -ﷺ- في دعوته - رغم ما لاقاه من قومه - إلى أن لقي ربه رابط الجأش، قوي القلب، صابرًا محتسبًا، فأنقذ الله به البشرية من الضلال، وأرشدها إلى ما فيه خيرها وصلاحها في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٤٩).

وبموته -ﷺ-، لم تتوقف مهمة الدعوة الى الله؛ بل ورثها العلماء العاملون من أمته، يقول -ﷺ-: «الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»[3]. وقال عليه السلام: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»[4].

لقد كان النبي -ﷺ- هو القدوة الكاملة، والأسوة الحسنة، فبلَّغ رسالة ربه كما أُمر. قال تعالى: ﴿يَٰأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة:٦٩). فلم يذق طعم الراحة طيلة ثلاث وعشرين سنة؛ بل قضاها مشمِّرا، داعيًا إلى توحيد الله تعالى، ونبذ الشريك عنه، فرسم لنا بذلك منهجا دعويًا متكاملا، محدد المعالم، واضح الملامح، يجب على كل من ورث عن النبي -ﷺ- وظيفة الدعوة، أن يجعله نصب عينيه، حتى تكون دعوته إلى الله على بصيرة. كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَٰنَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨).

ومن معالم هذا المنهج النبوي في الدعوة:

الصبر: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١١). وصبر الداعية هو أحد السبل المؤدية إلى نجاح دعوته، ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون مسارات الدعوة مفروشة بالأشواك والجماجم، لا بالزهور والرياحين.

والصبر المطلوب من الداعية يأخذ أبعادا متنوعة منها:

أولا: الصبر على الطاعة: بأن يوثِّق الداعية صلته بالله عز وجل، ويجتهد في أداء شعائره التعبدية كاملة، المفروض منها والمسنون، إذ في ذلك الزاد الذي يغذيه بالطاقة، ويجعله مقبلا على الدعوة بروح إيمانية لا تخبو ولا تفتر. قال تعالى: مخاطبًا رسوله -

ﷺ-: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (المزمل:١-٣).

وروي عن أنس - رضي الله عنه-، أنه قال حينما سئل عن عبادة النبي -ﷺ-: «مَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ مِنَ اللَّيْلِ مُصَلِّيًا إِلَّا رَأَيْنَاهُ، وَمَا كُنَّا نَشَاءُ أَنْ نَرَاهُ نَائِمًا إِلَّا رَأَيْنَاهُ، وَكَانَ يَصُومُ مِنَ الشَّهْرِ حَتَّى نَقُولَ: لَا يُفْطِرُ مِنْهُ شَيْئًا»(٥).

وعن عائشة - رضي الله عنها- قالت: «كان رسول الله -ﷺ- إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «يا عائشة: أفلا أكون عبدا شكورا»(٦).

ثانيا: الصبر في وجه البلايا والمحن: فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»(٧).

ولقد تعرض النبي -ﷺ- وصحابته الكرام، لأبشع صنوف المحن النفسية منها والبدنية، فما نال ذاك من عزيمتهم أبدا؛ بل كانوا الأسوة والقدوة لمن جاء بعدهم.

قال ابن عباس - رضي الله عنه- بعد أن سئل: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله -ﷺ- من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم، والله، إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به»(٨).

وتاريخ الإسلام مليء بالمواقف البطولية للأئمة والدعاة الذين اضطهدوا في سبيل الدعوة إلى الله، فأصابهم من الأذى والاضطهاد ما لا يخطر على بال، فمن هؤلاء: السعيدان برحمة ربهما: سعيد بن المسيب وسعيد بن جبير، والإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، وأحمد بن حنبل، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم.

فعلى دعاة الإسلام اليوم، وفي كل زمان؛ أن يسلكوا مسلك هؤلاء، ويصبروا صبرهم، وليعلموا أن هذه الدعوة ما كانت لتخترق سحب الضلال، وتكسر القيود والأغلال، لولا تلك الدماء الزكية التي فارت بها عروق الدعاة والعلماء المخلصين.

ثالثا: الصبر في وجه المساومات والإغراءات: وتلك وسيلة يلجأ إليها أعداء الدعوة في كل زمان قديما وحديثا. ولا عجب؛ فقد جربها كفار قريش مع النبي -ﷺ-. قال ابن هشام: «قالوا له - قريش - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله -ﷺ-: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني

إليكم رسولًا، وأنزل علي كتابًا، وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به، فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»[٩].

وبرفض النبي -ﷺ- لهذا الإغراء، تفتقت عقولهم عن مكيدة أخرى، فحاولوا استدراجه إلى أنصاف الحلول، فقالوا: يا محمد، هلُمَّ فلنعبد ما تعبد، ولتعبد ما نعبد، ونشترك في أمرنا كله. فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون:١).

والدعوة إلى الله مهمة عظيمة، إذ هي الطريق الموصل إليه تعالى، والتعرف بها على شرعه ومنهاجه، لذا يجب على الدعاة أن يعرفوا قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم، ويحذروا من الوقوع في شراك أنصاف الحلول، أو الالتقاء في منتصف الطريق مع خصوم الدعوة، أو الضعف أمام إغراءات الحياة المادية.. ولقد كشفت الثورات العربية أخيرا نماذج من هؤلاء الذين عز عليهم مفارقة حياة البذخ والترف في ردهات القصور، فأخرس الله ألسنتهم عن قول كلمة الحق، فانكشف زيف ذلك اللباس، وتمزق حتى أصبحوا عراة أمام العالم.

القدوة الحسنة: وهي الشق العملي في القيام بواجب الدعوة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). يقول ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله -ﷺ- في أقواله وأفعاله وأحواله»[١٠].

ولقد كانت أعماله -ﷺ- الترجمة الحقيقية لأقواله، فلم يكن عليه السلام ظاهرة صوتية، ولا أمة كلام، وإنما كان عمليًا، يبادر إلى الامتثال لما يأمر به، ويتجنب ما ينهى عنه. قال ملك عمان الْجُلَنْدَى: «والله لقد دلني على هذا النبي الأمي، أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به، ولا ينهى عن شيء إلا كان أول تارك له، وأنه يَغلب فلا يبطر، ويُغلب فلا يضجر، ويفي بالعهد، وينجز الموعود، وأشهد أنه نبي»[١١].

إن على الدعاة والمربين اليوم، أن يقفوا مع أنفسهم وقفة محاسبة، ويسائلوها مساءلة الغريم لغريمه، فلن تكون لمواعظهم وخطبهم ودروسهم أي فائدة، إلا إذا أدرك المدعوون أن هؤلاء أول الملتزمين بما يقولون، وإن اطلعوا منهم على عكس ذلك سقطوا من أعينهم، وفقدوا ثقة الناس بهم؛ بل وازدروهم واحتقروهم. ولقد أحسن الشاعر أبو الأسود الدؤلي مخاطبة هؤلاء حينما قال:

يا أيها الرجل المعلم غيرَه
هلَّا لنفسك كان ذا التعليمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهناك يُسمع ما تقول ويُقتدى
بالعلم منك وينفع التعليمُ
تصف الدواء لذي سقام بالضنى
كي ما يصح به وأنت سقيمُ
لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيمُ

التواضع: قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ (الشعراء:٢١٤). والتواضع من أهم الأخلاق التي يجب على الداعية الالتزام بها، إذ لا يستطيع أن يخاطب الناس، ويؤثر فيهم، ويغرس في قلوبهم حب المكارم والفضائل؛ إلا إذا نزل من قلوبهم منزلًا حسنًا، وأحس الناس منه بصفاء النفس، وسمو الروح، وشرف المقصد.

ولقد كان نبينا محمد -ﷺ- سيد المتواضعين، فلم تكن النبوة لتخرجه عن إنسانيته؛ بل عاش في قلب مجتمعه وسط الناس، واحدًا منهم، كارهًا التميز عليهم، لأجل ذلك كان ينهى أصحابه عن المبالغة في مدحه، والوقوف له، ووضعه في مكانة غير تلك التي ارتضاها الله له.

قال عليه الصلاة والسلام مخاطبا أصحابه: «لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ»(١٢).

ومن صور تواضعه -ﷺ- أنه كان يركب الحمار مع قدرته على ركوب الخيل، وكان يردف خلفه بعض أصحابه، ويسلِّم على من لقيه، ويهش في وجوههم، ويضاحكهم، ويلاعبهم، ويضع يده في أياديهم، وكان يعود المرضى ويدعو لهم، ويجلس حيث انتهى به المجلس، ولما دخل عليه رجل يوم الفتح ارتعد، فقال النبي -ﷺ-: «هَوِّنْ عَلَيْكَ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ»(١٣).

إن خلق التواضع من أرقى الأخلاق خدمة للدعوة، وتأثيرًا في المدعوين، وعلى الدعاة أن يدركوا أن الناس لا يستمعون لمن يتكبر عليهم، ويرى نفسه أفضل منهم، وإنما الناس تبع لمن يتواضع معهم، ويتذلل بين أيديهم، ويخدمهم بفعله كما يخدمهم بقوله.

فكن متواضعًا أيها الداعية، ولا تتحرج إن سئلت فلم تدر أن تقول: لا أدري، فقد قالها من هو أفضل منك. قال القاسم بن محمد - وقد سأله رجل عن شيء-: «لا أحسنه، فجعل الرجل يقول: إني دفعت إليك لا أعرف غيرك. فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي، وكثرة الناس حولي، والله ما أحسنه. فقال شيخ من قريش جالس إلى جنبه: يا ابن أخي، الزمها. فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم، فقال القاسم: والله لأن يقطع لساني أحب إلي من أن أتكلم بما لا علم لي به»(١٤).

وإذا أخطأت يوما فلا يزين لك الشيطان زلتك؛ بل اعترف بها أمام الناس، حتى لا يزلوا بسببك، فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل، وإذا جهلت شيئا أو تشككت فيه فاسأل من هم أعلم منك، فإن السؤال مفتاح العلوم، وإذا نُصحت فلا يضق صدرك بها حتى وإن كان الناصح أقل منك علمًا، وإذا تعرضت للإساءة من أحدهم فقدم العفو وتجاوز، واستحضر قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَامُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَٰهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩).

لين القول: فإن الداعية ليس بالسباب ولا بالشتام، قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥). إذ الواجب على كل داعية أن يدعو إلى ربه برفق ولين وإحسان، ويتجنب كل أسلوب فيه تجريح أو احتقار للآخرين.

وتبدو قيمة هذه الخصلة في الدعوة إلى الله، ما خاطب به الله تعالى موسى وأخاه هارون حينما قال لهما: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه:٤٢-٤٣). قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين»[١٥].

وقال الإمام الشوكاني: «أمرهما سبحانه بإلانة القول له لما في ذلك من التأثير في الإجابة، فإن التخشين بادئ بدء يكون من أعظم أسباب النفور والتصلب في الكفر، والقول اللين: هو الذي لا خشونة فيه، يقال: لانَ الشيءُ يلين لِينا، والمراد: تركهما للتعنيف»[١٦].

كما تبدو قيمتها أيضا في منهج النبي -ﷺ- في الدعوة، القائم على الرفق واللين والمخاطبة بالتي هي أحسن، فاستطاع بذلك أن يفتح مغاليق القلوب، ويحييها بعد أن غشيتها ظلمة الجاهلية.

ولقد ضرب لنا النبي -ﷺ- أمثلة رائعة في اللين في الدعوة. فعن أبي أمامة - رضي الله عنه- قال: أتى فتى شاب النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مه. مه. فقال: «ادنه، فدنا منه قريبًا». قال: فجلس. قال: «أتحبه لأمك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأمهاتهم». قال: «أفتحبه لابنتك؟» قال: لا. والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك قال: «ولا الناس يحبونه لبناتهم». قال: «أفتحبه لأختك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لأخواتهم». قال: «أفتحبه لعمتك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لعماتهم». قال: «أفتحبه لخالتك؟» قال: لا، والله، جعلني الله فداءك. قال: «ولا الناس يحبونه لخالاتهم». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللّهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه» قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء»[١٧].

فأنت ترى أن النبي -ﷺ- لم يعنف هذا الشاب الذي جاء يستأذن في ارتكاب كبيرة من الكبائر؛ بل ناقشه مناقشة هادئة، مليئة بالرفق واللين، أفضت به إلى استقباح هذا العمل، والعدول عنه.

فاحذر أيها الداعية أن تُغلظ القول في دعوتك، فينفر الناس عن الركون إليك، ويعرضوا عن السماع منك، فإن الرفق كما قال النبي -ﷺ-: «لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»[١٨] فكم من قلوب صلدة لا تلينها إلا الكلمة الطيبة، وكم من نفوس تائهة لا يُرشدها إلا القول الحسن الجميل.

ومن فقه الدعوة أيضا: الأمل وعدم اليأس: إذ الواجب على الدعاة - الذين هم ورثة الأنبياء - ألاَّ يستعجلوا قطف ثمار دعوتهم، وألا يركبهم اليأس إذا نفر الناس منهم، ولم يستجيبوا لدعوتهم، ولهم في أنبياء الله القدوة الحسنة. فهذا نبي الله نوح عليه السلام، مكث في دعوة قومه إلى التوحيد ألف سنة إلا خمسين عاما، فما تبعه إلا قليل. ونبينا محمد -ﷺ- اشتد عليه قومه، وآذوه، وضربوه، حتى جاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم

الأخشبين. فقال: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله.

فعلى الداعية أن يدرك أنه بدعوته يبرئ ذمته بين يدي الله تعالى، ويقوم بواجبه الديني الذي ورَّثه إياه رسول الله، وأنه لن يُسأل لماذا لم تدع الناس وترشدهم إلى طريق الخير والرشاد. ومتى تسرب اليأس والقنوط إلى نفوس الدعاة، وقفوا في منتصف الطريق، وفوتوا على أنفسهم وأمتهم الخير الكثير.

التعفف عما في أيدي الناس: ومن فقه الدعوة أيضا، أن يتعفف الدعاة عما في أيدي الناس، وتلك أرقى الأخلاق وأفضلها خدمة للدعوة، فإن الداعية متى تطلع إلى ما في أيدي الناس، وتاقت نفسه إلى شيء مما عندهم، لم يعد لدعوته أيُّ قبول في نفوسهم، وربما ازدروه واحتقروه لأجل ذلك، فعن سهل بن سعد الساعدي قال: أتى النبيَّ -ﷺ- رجل فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس. فقال رسول الله -ﷺ-: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّكَ النَّاسُ»(١٩).

إن فقه الدعوة إلى الله تعالى فقه مهم وضروري، لأنه مستنبط من كتاب الله تعالى وسنة نبيه -ﷺ-، لذا يجب على الدعاة الاجتهاد في ربط دعوتهم بهذا الفقه، والانطلاق منه لجعل جهودهم الدعوية محققة لأهدافها ومقاصدها. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (الجمعة:١).

* * *

الهوامش:

(١) سيرة ابن هشام تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/٢، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م (١/ ٢٩٠).

(٢) سنن أبي داود، كتاب: العلم، باب: الحث على طلب العلم، حديث رقم: ٣٦٤١ (٣/ ٣١٧).

(٣) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٤٦١ (٤/ ١٧٠).

(٤) صحيح مسلم، كتاب: العلم، باب: من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة، حديث رقم: ٢٦٧٤ (٤/ ٢٠٦٠)

(٥) مسند أحمد، مسند أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه، حديث رقم: ١٢٠١٢ (١٩/ ٧٠).

(٦) صحيح مسلم، كتاب: صفة القيامة والجنة والنار، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، حديث رقم: ٢٨٢٠ (٤/ ٢١٧٢).

(٧) سنن الترمذي، أبواب: الزهد، باب: ما جاء في الصبر على البلاء، حديث رقم: ٢٣٩٨ (٤/ ٦٠١)

(٨) سيرة ابن هشام (١/ ٣٢٠).

(٩) سيرة ابن هشام (١/ ٢٩٦).

(١٠) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/٢، ١٤٢٠هـ (٦/ ٣٩١).

(١١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -الأردن، دون طبعة، ١٤٠٩هـ (١/٢٤٩).

(١٢) صحيح البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قول الله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (مريم:١٦) حديث رقم: ٣٤٤٥ (٤/ ١٦٧).

(١٣) سنن ابن ماجه، كتاب: الأطعمة، باب: القديد، حديث رقم: ٣٣١٢ (٢/ ١١٠١).

(١٤) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي ـ المملكة العربية السعودية ط/١، ١٤١٤هـ (٢/ ٨٣٧).

(١٥) تفسير القرآن العظيم (٥/ ٢٩٤).

(١٦) فتح القدير، الشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط/١، ١٤١٤هـ (٣/ ٤٣٣).

(١٧) مسند أحمد، مسند أبي أمامة الباهلي، حديث رقم: ٢٢٢١١ (٥٤٥/٣٦).

(١٨) صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: فضل الرفق، حديث رقم: ٢٥٩٤ (٤/ ٢٠٠٤).

(١٩) سنن ابن ماجة، كتاب: الزهد، باب: الزهد في الدنيا، حديث رقم: ٤١٠٢ (٢/ ١٣٧٣).

القيم التربوية كما تعكسها سورة لقمان

بقلم: **الأستاذ محمد شمشاد عالم القاسمي** (*)

يشكّل القرآن الكريم دستورًا أساسيًا شاملًا للإنسانية كافة، فهو يحوي بين دفتيه التوجيهات الاعتقادية والقيم الإيمانية والتعبدية والأحكام الفقهية من جانب، ومن جانب آخر يتضمن القيم التربوية والتوجيهية والاجتماعية والخلقية المرتبطة بالحياة البشرية مما يُعد محورًا أساسيًا وجوهريًا في مجال الفلسفة التربوية اللازمة لبناء المجتمع البشري في كل زمان ومكان، والتي يعتمد عليها رقي الحضارة البشرية وتقدمها وازدهارها من مختلف جوانبها، في حين يتدهور ويفشل جميع النظريات التربوية والتيارات الفكرية في بناء إنسان صالح وسوي، كما تتهاوى كيانات وأنظمة ومناهج أُسست وبُنيت على نظريات وفلسفات تربوية وضعية وخاوية مضادة لفلسفة الإسلام الفطرية والسليمة والنقية من الإفراط والتفريط.

والقرآن الكريم هو كتاب العلم والمعرفة والهداية والتوجيه دون كتاب التلاوة فحسب كما هي النزعة السائدة في أوساط عامة المسلمين، فقد لعب دورًا كبيرًا ومهمًا في تشكيل الحياة الإنسانية فكريًا وعمليًا، وأسهم إسهامًا فعالًا في بناء التاريخ البشري وتشكيل الجوّ العام والعقل والوجدان وكل ما يرتبط بالإنسان في هذه الحياة؛ «لأن القرآن الكريم خطاب الله الكامل للإنسان، والكتاب الجامع المفتوح للدراسة والتأمل في كل زمان ومكان، هو مصدر المعارف الدائم يعظم من يأخذ منه، ويَشرُف من يلجأ إليه»[1]، ولكن المسلمين لا يتدبرونه ولا يتفكرون فيه، ولا يغوصون في بحره العميق ومحيطه المعرفي اللامحدود، ولا يستمدون التوجيهات منه، ولا يستوحون استيحاءات إيمانية وخلقية وتربوية منه رأسًا؛ بل اتخذوه مهجورًا، هذا هو السبب الأساسي وراء تخلف المسلمين في مجالات الحياة جميعًا.

والقيم التربوية في القرآن الكريم لها أهمية بالغة في «توجيه الفرد وإرشاده، وللمجتمع لإصلاح الانحرافات الاجتماعية التي تعانيها المجتمعات الإسلامية بسبب اعتمادها على مناهج وفلسفات الآخرين، ما أدى إلى إبعاد الأجيال عن قرآنها وهجره، وتَحَلُّلِ المجتمع وانحرافه، واستشراء

(*) باحث الدكتوراه، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، دهلي الجديدة، الهند.

الظواهر السلبية في المجتمع، الأمر الذي شكّل نوعًا من نقاط «الضعف» الذي استغلها الاستعمار الغربي، وأخذ يضرب المجتمعات العربية الإسلامية خاصة وتفكيكها والإجهاز عليها»[٢]، إذن فلابد لنا من الرجوع إلى القرآن الكريم من جديد في مجال التربية.

المحور الأساسي لسورة لقمان

ولهذه السورة أهمية كبيرة في مجال التربية والإصلاح الديني والاجتماعي للأجيال البشرية، فتتحلى بالمبادىء والأصول المثالية حول صَهر شخصياتهم وأفكارهم وميولهم في بوتقة التربية الحسنة والأخلاق الفاضلة، وتتضمن السورة كنوزًا تربوية نفيسة، فتتمحور أساسيًا حول تربية الأولاد، فهي «تمثل بحق أفضلَ طرق تربية الأولاد، وجاءت آياتها فيها رقة وحذر ولطف وهدوء، فلقمان أوصى ابنه بكل مودة ولطف ورقة، وأكثر من استخدام كلمة «يا بنيّ»، وأوصاه بوصايا هي قمة الآداب الاجتماعية والأخلاق الحميدة»[٣].

أهداف السورة الإجرائية والسلوكية

وتهدف السورة إلى تحقيق أهداف إجرائية وسلوكية عديدة منها ما يلي:

١- «أن يعلم المسلم عظم مكانة آيات الله عزّ وجلّ.

٢- أن يشعر المسلم بطلاقة القدرة الإلهية وأن يلامس قلبه حلاوة الإيمان.

٣- أن يمضي المسلم حاملًا دعوة الله للناس جميعًا.

٤- أن يعرف المسلم فضل الوالدين وعظم منزلتهما.

٥- أن يشعر المؤمن بفضل والديه عليه وأن يجد حلاوة الطاعة، ويستشعر قبح المعصية.

٦- أن يحرص المؤمن على طاعة والديه وأن يكون متواضعًا لله.

٧- أن يشعر المؤمن بعظم وكمال قدرة الله في الكون.

٨- أن يعلم المؤمن بعض مظاهر قدرة الله في الكون.

٩- أن يسلم المؤمن وجهه لله عزّ وجلّ وأن يكون قدوة للآخرين في الرضا بمقدور الله.

١٠- أن يعلم المسلم عاقبة الاغترار بالحياة الدنيا.

١١- أن يشعر المسلم بنعم الله عليه.

١٢- أن يجتهد المؤمن في عباداته ويلتزم أوامر الله ويجتنب نواهيه»[٤].

القيم التربوية التي تحويها سورة لقمان

هذه السورة مكية، وفيها أربع وثلاثون آية، وهي زاخرة بالقيم التربوية التي تحمل منهجًا ربانيًا في تنشئة الناشئة والأخذ بيدها إلى طاعة الله التي ترقى بالإنسان إلى ذروة الشرف والعز والكمال، ولكن تعالج أساسيًا قضية العقيدة، فيقول سيد قطب: «هذه السورة المكية نموذج من نماذج الطريقة القرآنية في مخاطبة القلب البشري، وهي

تعـالج قـضية العقيـدة في نفـوس المـشركين الـذين انحرفوا عـن تلك الحقيقة... هـذه القـضية الواحـدة تتلخص هنا في توحيد الخالق وعبادته وحده وشكر آلائه، وفي اليقين بالآخرة وما فيها من حساب دقيق وجزاء عـادل، وفي اتبـاع مـا أنـزل الله والـتخلي عـما عداه من مألوفات ومعتقدات»[٥].

و أوائـل الآيـات الكريمـة في هـذه الـسورة ترشدنا إلى أن من أُوتي العقيدة الصحيحة النقية هو المـستحق لتلقـي القـرآن الكـريم واسـتقاء رحمتـه وهداه، كما توجهنا إلى أن المسلمين يجب عليهم أن يحفظوا أوقاتهم فلا يضيعوها في اللهو والعب والهذر والهزل وما لا يعنيهم من الأمور، وكذلك تدعو إلى التدبر والتفكر فيما خلقه الله عزّ وجلّ من السماوات والأرض والجبال والبحار والأمطار والزرع.

ثـم تبتدئ قصة لقمان بقوله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ...»، فأول ما يمكن أن يُلاحَظ هنا في سياق قضية التربية هو أن الله تعالى أخبرنا عما آتاه لقمان، وإلى ماذا وجّهه قبل بداية وصايا لقمان لابنه، وهـي الحكمـة، ومـن يـؤتى الحكمـة فقـد أُوتي خـيرًا كثيرًا، و«الحكمة لا شك أنها أهـم خـصائص المربي الـذي يستطيع من خلال تجلياتها في مسار حياته... أن يوجه من يربيهم إلى شاطئ الأمان. وقد وجهه الله جل وعلا إلى شكره مبينًا له عاقبة الشكر التي تعود على الشاكر بحسن العاقبة، كما بيّن له الخسران المترتب على جحود نعمة الله وكفرها، ومن تجليات الحكمة هنا رقة الخطاب الأبوي الحاني من لقمان الحكيم، حين ينادي ابنه: يا بُنَيّ، فلا زجر ولا تعنيف ولا امتهان لكرامة، وإنما شعور نبيل يفيض لطفًا وحنانًا ودفاقًا، ينسكب على القلب والوجدان»[٦].

وبعـد ذلـك تبتـدئ موعظـة سـيدنا لقـمان ووصـاياه لابنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ...﴾، فبدأ أولًا بأهم القيم التربوية للناشئين وهو نهيهم عن الشرك، فنهى ابنه عنه وبيّن خطورته العظيمة. فمن هنا يلاحظ الباحـث أن سـيدنا لقـمان في بدايـة إسـداء نـصيحته التربوية لابنه قد ركّز جُلّ عنايته على أصل الاعتقاد الـصحيح وتوحيـد الله تعـالى وإفـراده بالأوهيـة والربوبية والحاكمية ناهيًا إياه عن الشرك ثم عزّز هـذا النهـي ببيـان الظلـم العظيم الـذي يترتـب على التلبس بأي شيء يفضي إلى الشرك، فهذا هو محور الارتكـاز الـذي يجب أن يـدور حولـه قطب حيـاة الإنسان بكل أبعادها منذ نعومة أظافره حتى يأتيه اليقين.

ثم تأتي مباشرةً قيمةٌ تربوية أخرى لا تقل أهمية وهي وصية الله تعالى للجنس البشري بالوالدين، آمرًا لهم بتعظيمهما، وواضعًا أُسسَ التعامل معهما على أي حـال كانـا عليـه، فيقـول الله عـزّ وجـلّ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ...﴾، فهذه الوصية التي ساقها الله تعالى للناس جميعًا في هذه الآية والآية التالية ووضعها في أثناء قصة لقمان وسياقها، لها دلالاتها الحكيمة والمهمة، فمن خلال النظر في

الآيتين نجد فيهما «تذكير المربي الذي يُناط به تربية الأجيال بمنة الله عليه بوالديه اللذَين جعلهما سببًا لوجوده، ووصية الله بهما، خاصة أمه التي مرّت بمراحل متعددة من الوهن، وقدّمت ما قدّمته من التضحيات من أجله، فهو يقف الآن مذكّرًا ومرشدًا وواعظًا لأبنائه، ولكن ينبغي أن يستشعر جهد أبويه من أجله، فيفيض قلبه بالشكر لهما شكرًا قَرَنه بارئ الوجود بشكره، تعظيمًا لحقهما، ولفتًا للنظر إلى ما يتوجب من رعايتهما وبرهما على أي حال كانا عليه»[٧]، فتُثبت الآية الكريمة أنه يجب التواصل والبر بالأبوين مهما كان حالهما من الإيمان والشرك، إلا أنها حدّدت الخط الأحمر الذي لا يمكن تجاوزه، معبّرًا عنه بالامتناع عن طاعتهما إن جاهَدا ولدهما على أن يشرك به تعالى شيئًا، فحينئذ تحرم طاعتهما.

وعلى الرغم من أن الله – جلّ وعلا– بيّن فظاعة الشرك ووصفه بـ«ظلم عظيم»، إلا أنه أكّد هنا أنه لا ينبغي أن يحول الشرك بين الإنسان وبين الإحسان والبر الدنيوي بالأبوين، وبين مصاحبتهما بالمعروف إذا كانت مصاحبتهما ومخالطتهما في حدود شرعية، وهنا نقطة مهمة من منظور دعوي وهي «أن في المصاحبة لهما بالمعروف دعوةً لهما إلى الإيمان، وتليينًا لقلوبهما وتبصيرًا بثمار الإيمان الذي عليه ابنهما المصاحب لهما معروفًا، وحقائقِه الرائعة والدافعة إلى هذه المصاحبة»[٨].

وبعد ما أمر الله الإنسان بطاعة الوالدين ووصّاه بهما، يستأنف السياق موعظة لقمان لابنه، فبعد تأكيده على التوحيد ومقتضياته، والتوضيحِ لفظاعة الشرك وفداحته، وتبصيرِه بأهمية خلوص التوحيد، فيتدرج به إلى المرحلة التالية في غرس المعتقَد وبنائه البناء الصحيح قائلًا: «يَابُنَيِّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ...» فيجلي سيدنا لقمان لابنه الأثر العظيم لصفتين مهمتين من صفات الله تعالى وهما صفتا «اللطيف الخبير»، فيجعل ابنه يستشعر قدرة الله اللامحدودة وإرادته الحرة التي لا تعرف الحدود والقيود، ويغرس في قلبه علم الله المحيط الشامل الذي لن يمكن أن يخفي عليه شيء في جميع الكون مهما كان صغيرًا ودقيقًا ومخفيًا عن أنظار المبصرين، وهنا ينبغي لنا أن نتأمل حبة الخردل التي هي «المهينة الدقيقة، وهي مفردة تتقاذفها أنواء الحياة وتلقي بها في صخرة، أو تحملها في أجواء السماء، أو تضعها في طيات الأرض ومهامهها الفسيحة، فإن علم الله محيط بها، وهو جلّ وعلا قادر قدرة مطلقة على الإتيان بها، وتأمل ما ختم به لقمان هذا المشهد الموحي قائلًا: «إِنَّ اللهَ لَطِيْفٌ خَبِيْرٌ»، فهذا هو أثر هاتين الصفتين الجليلتين من صفات الله الذي ينبغي أن نخلص له التوحيد، وأن تمتلئ القلوب منه مهابة وإعظامًا، وتفيض له إجلالًا وشكرًا»[٩].

وبعد ذلك تجيء قيمة تربوية أخرى مهمة جدًا وهي التأكيد على إقامة الصلاة التي هي عماد الدين، وتشكل عمودًا تقام عليه الحياة، وينبغي تربية الناشئين عليها منذ طفولتهم وصغرهم، فيقول

سيدنا لقمان لابنه آمرًا له بإقامتها والمواظبةِ عليها: «يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ»، ولأهمية الصلاة يكفي أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «جُعلتْ قرة عيني في الصلاة»(١٠)، وكان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فإن أراد الشعب المسلم العزة والتمكين فعليه أن ينطلق نفسه من محراب الهجود والسرر المرفوعة أولًا ويواظب على الصلاة، ثم ليربِّ ناشئته وأفلاذ كبده على إتقانها موضحًا لمعانيها، ومرسخًا لأهميتها في قلوبهم الساذجة، ومحبّبًا إياها إليهم، وكذلك يربيهم على الإكثارمن الوقوف بين يدي الخالق المعبود في سويعات السحر، «بحيث تكون هي همهم الأول، فيضعونها على رأس أولياتهم مطلقًا، فما لم تصح الصلاة، وما لم تحدث أثرها الفاعل في النفوس فلن تزكو الأخلاق ولن تسموَ النفوس»(١١).

ثم تتلوها قيمتان تربويتان اجتماعيتان تُعتبران دعامتين أساسيتين لصيانة المجتمع البشري، وهما «الأمر بالمعروف» و«النهي عن المنكر»، فأكد سيدنا لقمان عليهما مع الحث على الصبر في سبيلهما، فهما يشكّلان دعامتين لا بدّ من ركزها وإرسائها بعمق في أوساط المجتمع، وهي المزية التي ميَّز بها الله هذه الأمة عن الأمم الأخرى، وجعلها عنوانًا على المزايا التي منحها خير الأمم. ولا شك أن تربية الأطفال المسلمين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر لا بدّ منه، ولكن يجب أن يسبقها تربيتهم على التحلي بالمعروف ونشره وإحداث أثره في الحياة قبل أن يُربَّوا على أن يأمروا الآخرين به، كما يجب تربيتهم على البعد عن المنكر، والنفور منه، والحرص على عدم التلبس به قبل أن ينهوا الآخرين عنه، واضعًا في عين الاعتبار أن هذا أمر ينبغي فيه الأخذ بمبدأ التدرج مع الناشئين وترويضهم بما يتناسب مع أعمارهم وقدراتهم الشخصية المختلفة، فسنة الحياة هي التدرج والتأني.

والجدير بالملاحظة هنا أن لقمان الحكيم لم ينس في موعظته أن يحث ابنه على الصبر والتحلي بهذه القيمة الاجتماعية السامية؛ لأن أي تقدم في الحياة لن يتحقق للناشئين بدون غرس قيمة الصبر في نفوسهم منذ نعومة أظافرهم، و«يكون ذلك من المربي بمساندتهم والوقوف معهم في شتى مواقف الحياة مهما رأيناها بدهية وسهلة، وكذلك تبيين ما وعده الله من يتحملون المشاق ويصبرون، أي ربطهم بالله ورجاء ثوابه، بالإضافة إلى المساندة المعنوية والحوافز المادية عند اجتيازهم أي تحد من التحديات»(١٢).

ثم يرشد سيدنا لقمان ابنه إلى مجموعة تربوية رائعة من مقومات الخُلق السامي والرفيع الذي يريد أن يحليه بها، ويوجهه إلى مهارات فاعلة ومؤثرة من مهارات التواصل والاتصال مع الآخرين، قائلًا: «وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ...»، فمن القيم التربوية التي يحويها هذا النص هو عدم الإعراض عن الناس، وعدم المشي بتكبر وخيلاء إعجابًا بالنفس، والاقتصاد في المشي، وخفض الصوت.

خاتمة

هذه هي نبذة من القيم التربوية الكثيرة التي تزخر بها السورة وموعظة لقمان خاصة، وفي الحقيقة هي غيض من فيض، وقطرة من البحر، والمقالة الوجيزة لن تسع الاحاطة بها، ومن المقترحات التربوية التي يمكن استنتاجها من السورة ومنهج سيدنا لقمان التربوي ما يلي:

١- الحرص على إسداء النصيحة مستمرًا، دون كلال وملال، مع التحلي بالصبر على مشاكسة الأبناء، وعدم توقع استجابتهم من أول مرة أو حتى عاشر مرة، فالطفل يحتاج إلى ترويض بالحب والحنان والرفق أكثر من العنف والترهيب، تأمل عبارة «يا بُنَيَّ» وما فيها من التلطف وتكرارها في سياق القصة.

٢- الإكثار من ربط الأبناء بمشاهد الكون الفسيح والآيات الباهرة فيه والدالة على وحدانية الله وعظمته وشمول علمه.

٣- الحرص على التدرج في تربية الأبناء تبعًا لسنة الله في كثير مما يخص مسيرة حياة الإنسان، والذي نشاهده كل يوم، فالطفل يعيش أيامه الأولى مستلقيًا على ظهره، ثم يبدأ في الانقلاب على بطنه، ثم يتعلم الزحف ثم الحبو، وهكذا يتدرج إلى أن يشتد عوده وتنمو ملكاته المختلفة، فتدرج يا أيها المربي معه وابدأ بتحميله المسؤوليات الصغيرة التي تناسب كل مرحلة من عمره.

* * *

الهوامش:

(١) أحمد، بروفيسور حسن مكي محمد، مقدمة كتاب «الأوراق العلمية»، (المركز الإسلامي الإفريقي، جامعة إفريقيا العالمية، ٢٠١١م)، ص:٧.

(٢) عبيد، د. دلال كاظم، مقال: «القيم التربوية في القرآن: سورتي لقمان والحجرات أنموذجًا»، مجلة «كلية التربية للبنات»، جامعة بغداد، المجلد ٢٧ (٤)، ٢٠١٦، ص: ١٣٠٣-١٣٠٢.

(٣) الجزائرية، جهاد، بحث: «أسس تربية الأبناء من خلال سورة لقمان- دراسة موضوعية»، موقع ملتقى أهل التفسير، ١٣-٠٤-٢٠١٢م، https://vb.tafsir.net/tafsir31555/#.XSripugzY2w

(٤) الباز، أنور، التفسير التربوي للقرآن الكريم، (القاهرة، مصر، دارنشر للجامعات، ٢٠٠٧م)، ج:٣، ص:٥ و ٨ و ١١ و ١٤.

(٥) قطب، سيد، في ظلال القرآن، ط٣٢، (القاهرة، دار الشروق، ٢٠٠٣م)، ج٥، ص:٢٧٨٠.

(٦) العيسري، عبد الله بن عامر، مقال: «القيم التربوية في موعظة لقمان»، مجلة «معالم» التربوية، العدد التجريبي الثالث، ربيع الآخر، ١٤٣٤هـ، ص:٣٢.

(٧) نفس المرجع، ص:٣٣.

(٨) نفس المرجع والصفحة.

(٩) نفس المرجع والصفحة.

(١٠) أخرجه النسائي، رقم الحديث:٣٩٤٠، وأحمد، رقم الحديث:١٤٠٣٧.

(١١) العيسري، مقال: «القيم التربوية في موعظة لقمان»، ص:٣٤.

(١٢) نفس المرجع والصفحة.

* * *

* *

رجل كل العصور

بقلم: **الأستاذ خالد محمد خالد**

ولم يكن الشاعر «لامارتين» هو الذي صاغ إعجابه المغتبط، وشهادته المتألِّقة – فحسب – بل كان عقله يسابق وجدانه نحو هذا الإعجاب، وهذا الانبهار.

وكأيٍّ من عالِمٍ غربيٍّ .. يعتمد في تكوين أحكامه على المنطق، والتحليل، والمناقشة، والمقارنة. يشكُّ ليعرف. ويتوقَّف قبل أن يحكم، استطاع في ضياء إخلاصه وصِدْقه، ونزاهة عقله وفكره – أن يصل إلى نفس النتجية التي تؤكّد ندرة الوجود المحمدي بين كل وجود وكل موجود.

هذا. مثلا. «روم لاندو» الذي عمل أستاذًا للدراسات الإسلامية والشمال أفريقيّة، في جامعة المحيط الهادي بكاليفورنيا. يقول في كتابه: «الإسلام والعرب»:

كان «محمد» ﷺ تقيًّا بالفطرة. وكان من غير ريب مهيّأ لحمل رسالة الإصلاح التي تلقّاها في رُؤاه. وكان يملك إيمانًا لا يلين بفكرة الإله الواحد. وعزمًا راسخًا على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيِّين العرب.

«كانت مهمته هائلة!!

«وإنَّ الزَّعم القائل بأن فترات تلقّيه الوحْي كانت نوباتِ صرعٍ زعمٌ خاطئٌ على نحو جليٍّ. ذلك لأنّ من يتعرّض لهذه النوبات، لا يمكن أن يكون مالكًا وعيَه ومنطِقَه إلى حدِّ القدرة على النُّطق بمثل المقاطع المعقَّدة والعميقة التي نطالع الكثير منها في القرآن.

«إنّ الإخلاص الذي تكشّف عنه محمد في أداءِ رسالته، وما كان لأتباعه وأصحابه من إيمانٍ كامل بما نزل عليه من وحي اختبار الأجيال والقرون. كل أولئك يجعل من غير المعقول اتهام محمد بأيِّما ضربٍ من الخداع والتلفيق.

«فلم يعرف التاريخ أَي تلفيق ديني متعمد – حتى حين يكون صاحبه عبقريًا في الدجل – استطاع أَن يعمر طويلًا.

«وإن الإسلام لم يعمر حتى الآن ما ينِّيف على ألف وأربع مئة سنة، فحسبُ؛ بل إنه لا يزال يكسب في كل يوم أتباعًا جددًا».

* * *

حين وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه «رحمة للعالمين» لم يكن هذا الوصف تحيّة من عند الله له

فحسبُ؛ بل كان كذلك إرهاصًا بما سيظفر به من البشرية في كل عصورها وأجيالها من حمد لا يطاوَل، ومجد لا ينصُل بهاؤه، بما يحمل قلبه الكبير للناس من مرحمة، وبما يغذوهم به من نعمة الهدى وزاد الحقيقة.

وهكذا لم يكن الرسول ﷺ عظيم أيّام دون أيّام ولا عصور دون عصور؛ لأنّه لم يكن داعية مرحلة؛ بل داعية أبد!! ولقد غدقت روافده وينابيعه – عبر الأجيال والقرون – بكل طيِّب وصادق وجميل من عذب القول وخالص العمل، وجلال السلوك!!

من أجل ذلك، كان «الرجل»الذي تتأنَّق فيه معالي الأمور وتتألَّق به ومعه القدوة الصالحة في كل عصر وجيل!!

ومنذ جاء محمد ﷺ وإلى يوم الناس هذا. ثم إلى الأبد وما بعد الأبد – إنْ كان للأبد بعد – يجد كلُّ عصرٍ فيه وفي دينه قدوته، وأُسوته، وآماله المرجوَّة، وخلاصه المرقوب!! هو إذن أَمام كل زمان، وقائد موكبٍ متساوق من الناس والأيام والأحلام والمبادئ والرُّؤَى والقِيَم. موكب لا يُؤْذن بانتهاء.

ولقد أذعن لهذه الحقيقة وأذاع بها – منصفون كثيرون من مفكري أوروبا المنصفين.

وهذا واحد منهم يقول:

«لقد أظهر محمد عظمته الحقيقية في أنه لم يكن رجلَ عصرٍ بعينه؛ بل رجل كل العصور. ولم يكن محمد حالماً؛ بل عكف على ترسيخ أسس المجتمع الذي رسمه لنفسه.

«كان رجل دولةلا نظير له!! فقد استطاع في عصرٍ عمَّه التَّفسخ الذي لم يكن ثمَّة أمل في الشفاء منه. وبالخامات البشرية التي وجدها بين يديه من حواريِّيه وأصحابه، أن يبنى دولةً ومجتمعًا على أسس عالميَّة رائعة»!!

هكذا صدع المستشرق «موير» وصدح بهذه الشهادة الصادقة في كتابه: «حياة محمد» رغم ما كان يخرج به أحيانًا من استنتاجات مغلوطة.!!

إنَّ شرف الحق وقداسَتَه يفرضان على أُولى الألباب والنُّهىَ الاحترام لهما، والاعتراف بهما، وبالتالي لمن وبمن يحمل راية الحق، حانيًا عليه. وداعيًا إليه.

هكذا كان الرسول محمد ﷺ ولسوف يبقى، في الصَّدارة من هؤلاء الحانين والداعين.

* * *

تُرى من يكون هذا الرجل الفذُّ، والرسول العظيم. وماذا كان سره المعجز والمهيمن؟ أمّا من يكون؟ فسيأتي حديثه عماقليل. وأَمَّا سرّه الذي حبَّبه إلى الناس وزيَّنه في قلوبهم – مكذّبين ومؤمنين. راضين وكارهين. ممَّن هم معه، وممَّن هم عليه. فأمر يبهَر الألباب حقًا. وتحار فيه العقول!

فمِنَ الجاهليين الذين آمنوا به، واتَّبعوا النُّور

الـذي أُنـزل معـه.. إلى أولئـك المفكّـرين الكبـار مـن أوروبـا والغـرب الـذين لم يُـسْلِموا معـه.. وأسـلموا واستـسلموا لـسرِّه الجليـل، وعظمتـه المتفوِّقـة، ومواهبه المتألِّقة، بين أولئك وهؤلاء رؤية مشتركة لهذا السرِّ، ولتلك العظمة وهاتيك المواهب.

وهي رؤية تَرى المؤمنين مناسكهم وأُسوتهم.. وتَرى غير المؤمنين، ذلك الألَق الإنسانيَّ الذي يفجِّر في أنفسهم التيِّه والخُيلاء، إذ إنَّهم ينتمون لهذه البشريّة الباقية التي أنجبت – فيمن أنجبت – هذا الإنسان الممجَّد والعظيم.

وليس إجلال المفكِّرين الغربيين له بأكثرَ دلالة من إجلال الذين عاصروه من العرب، وتلقَّوْا منه كلمات الله،وحملوا معه راية القرآن والإسلام.

وليس السرِّ الكامن وراء هذا الإجلال من كلا الفريقين إلَّا تفسيرًا صادقًا للعُجب الذي يملأ أفئدتنا ويستجيش ألبابنا تجاه بساطة وعظمة وتأثير هذا الرسول الأمين.

ففي بيئته وقومه، وزمانه، حيث يقوم لرب العالمين، بين قوم لهم في بعض المواهب والخصائص شُموخ. وإنَّهم لعنيدون فيطلب الدَّليل والبرهان على كلِّ دعوى وقضيَّة.. متعاظمون حتَّى حين تغشَاهم المسغبة ويُملِقون. سادة لم يذلُّوا قطُّ لغازٍ ولا دخيل.

في هذه البيئة اللافحة والمستعلية.. وبين هؤلاء الناس المتغطرسين الغلاظ، كيف فرضت شخصية الرسول ﷺ احترامها وجلالها، حتى قبل أن يُبعث رسولا.. بل حتَّى وهو شاب في عمر أبناء بعضهم، وأَحفاد الآخرين؟

ثم كيف أشرقت قلوبهم بنور ربها بعد بعثته، وحملوا من الإِيمان ما يبذُّ كل نظير.؟!

دعوني أنقلْ من كتَابي «رجال حول الرسول» هذه الكلمات والتساؤلات:

* ما الذي جعل سادة قومه يسارعون إلى كلماته ودينه – أبو بكر، وطلحة، والزبير، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص.. متخلِّين بهذه المسارعة المؤمنة عن كلِّ ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه، مستقبلين – في ذات الوقت – حياة تَمور مَوْرًا شديدًا بالأعباء وبالصِّعاب وبالصِّراع.

* ما الذي جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه، ويُهْرَعون إلى رايته ودعوته وهم يبصرون أعزل من المال، ومن السلاح.. ينزل به الأَذى ويطارده الشر في تحدٍ رهيب دون أَن يملك له دفعًا؟!

* ما الذي جعل جبار الجاهلية – عمر بن الخطاب – وقد ذهب ليقطف رأسه العظيم بسيفه يعود ليقطف بنفس السيف الذي زاده الإيمان مضاءً رؤوسَ أعدائه ومضْطَهديه.؟!

* ماالذي جعل صفوة رجال المدينة ووجهائها يفِدون إليه ليبايعوه على أن يخوضوا معه البحر والهول، وهم يعلمون أنَّ المعركة بينهم وبين قريش ستكون أكبَر من الهول.؟!

* ما الذيب جعل المؤمنين به يزيدون ولا ينقصون، وهو الذي يهتف فيهم صباحَ مساءَ: ﴿لَا أَمْلِكُ لَكُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾، ﴿وَلَا أَدرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُم﴾.؟!

* ما الذي جعلهم يصدّقون أنَّ الدنيا ستُفْتح عليهم أقطارها. وأن أقدامهم ستخوض خوضًا في ذهب العالم وتمشي فوق تيجانه. وأن هذا القرآن الذي يتلُونه في استخفاء ستردده الآفاق عاليَ الصَّدْح قويَّ الرَّنين – لا في جيلهم فحسب.. ولا في جزيرتهم وحسب.. بل عبر جميع الزمان وجميع المكان.!!

أجل.. ما الذي جعلهم يصدِّقون هذه النبوءة يحدِّثهم بها رسولهم ﷺ، وهم الذين يتلفتون فلا يجدون أمامَهم وخَلفهم، وعن أيْمانهم وعن شمائلهم سوى القيظ والسغب وحجارة تلفظ فَيْحَ الحميم، وشجيرات يابسة طلعها كأنَّه رُءوس الشياطين.؟!

* ما الذي ملأ قلوبهم يقينًا وعزمًا.؟!

إنَّه ابن عبد الله!!

ومن لكل هذا سواه؟!

لقد رأوا رأى العين كلَّ فضائله ومزاياه.

رأوا طُهره، وعفته، وأمانته، واستقامته، وشجاعته.

رأوا سمُوَّه وحنانه.. رأوا عقله وبيانه.. رأوا الشمس تتألق تألق صدقه وعظمة نفسه.

سمعوا نموَّ الحياة يسري في أوصال الحياة عندما بدأ محمد ﷺ يفيض عليها من وحي يومه وتأمُّلاته أمسه.! رأوا كلَّ هذا، وأضعاف هذا، لا من رواء قناع.. بل مواجهةً وتمرُّسًا، وبصرًا وبصيرة.

وحين يرى عربيٌّ تلك العصورِ شيئًا ويفحصه فلا ينَبِّئُك آنئذٍ مثل خبير.

فهم أهل «القيافة والعيافة» يرى أحدهم وقع الأقدام على الطريق فيقول لك: هذه قدم فلان بن فلان.!!

ويشم أنفاس محدِّثه فيدرك ما تحت جوانحه من صدق أو بهتان.

هؤلاء رأوا محمدًا ﷺ وعاصروه منذ أهلَّ على الوجود وليدًا.

لم تخْفَ عليهم من حياته خافية.

كلُّ رُؤَاه، كلُّ خطاه، كلُّ كلماته، كلُّ حركاته، بلْ كلُّ أَحلامه وأمانيه وخاطرات نفسه كانت من أوَّل يوم أهلَّ فيه على الدنيا حقًّا للناس جميعًا.

لكأنَّ الله تعالى أراد بهذا أن يقول للناس: هذا رسولي إليكم – وسيلته المنطق والعقل – وهذه حياته كلها مذ كان جنينا.

فبكلِّ ما معكم من منطق وعقل، افحصوها وحكِّموها.. هل ترون فيها شبهة.؟ هل تبصرون زيفًا.؟ هل كذَب مرَّة؟. هل كشف عورة.؟ هل خفَر ذمة.؟ هل قطع رحِمًا.؟ هل أهمل تبعة.؟ هل تخلَّى عن مروءة ونجدة.

هل شتم أحدًا.؟ هل استقبل صنمًا؟.

* * *

كما يقول «كارْلِيلْ»:

«كـان ظهـور محمَّـدٍ ﷺ في الحيـاة ولادة مـن الظلمة إلى النور.!»

كان قومه على شفا حفرة من النار، فأنقذهم منهـا. ولايـزال، وسيظل منقـذًا لكلِّ الـواقفين عـلى شـفا الحفـر. والـسائرين – في عمـى – نحـو مهـاوي الخطر! وإنّ الكلمات المضيئة والجريئة والمفيئة التي واجه بها قومه في الساعات الأولى من بعثته سيُطِلُّ بوجهها إلى العالم في شتى عصوره ودهوره وأجياله.

وهذا ما يجعله «رجلَ كلِّ العصور».!

فعندما أنبأه الله سبحانه أن وقته قد حان. وأنَّ دوره قـد جـاء ليبلّـغ رسـالته ونِذارتـه بادئـًا بعـشيرته الأقربين – صعد الصفا، ونادَى يا معشر قريش.

وراح القُرشـيون يعـدون، ويقطعـون الأرض وثبا نحو الأمين!

وتحلَّقـوا حولَـه، وعيـونُهم تتلهَّـف، وآذانهـم تُعطِي السمع في سكون.

وأشـار محمـد ﷺ بيمينـه – بـارك الله يمينـه – وقال:

«أَرأيتم لو أَخبرتُكم أنَّ خيلًا بالوادي تريد أَن تغير عليكم. أَكنتم مُصدِّقِيَّ..؟

قالوا في صوت واحد: نعم واللات.. فما جرَّبنا عليك كذِبًا.!

قال: «فإن الله قد أرسلني إليكم، لتعبدوه ولا تـشركوا بـه شـيئًا. وإنّي نـذير لكـم بـين يـدَيْ عـذابٍ شديد».

وتغشَّى وجوهَ أكثرِهم تجهُّم ووجوم.. ولـوَوْا أعناق البقرات والثيران!!.

لكنهم لاذوا بصمتٍ. ولم تفتح بدائِهُهم عليهم بكلام..

وفجـأة. انبعـث أشـقاها!! ومـن أسـفٍ أن كـان هذا الشقيُّ عمَّه أبا لهب، الذي قال: تبًّا لك. ألهذا جمعتنا؟؟

* * *

إِن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

إِن «رجل كل العصور» لايزال هناك قائمًا فوق الصفا أو فوق البطحاء ينادي الناس أنه نذير لهم بين يـدي عـذاب شـديد. يدعوهم إلى الخير، ويناديهم إلى الحقيقة. ويدلُّهم إلى خالقهم.. ربِّهم وربِّ كل شيء!!

إنه يرسِل في الجموع من كلِّ جيل سَنا مبادئه وصدقه وكلماته الوضَّاءة.!!

وينادى الذين تفصَّموا عن حقائق الدين – كل دين – إلى الحقيقة التي لا انفصام لها.

ولكلٍّ من تلك الجموع والأجيال «أبو لهبها» يـشغَب بغثيـث القـول وأرذلـه، ويقـول للـصوت الصادح بالحق: تبًّا لك سائر يومك. ألهذا جمعتنا؟!

أجل إنَّ محمدًا ﷺ هنا وهناك. إنّه معنا ومع الآخرين.. مع البشرية كلها منذ اصطفاه ربُّه ليكون للعالمين نذيرًا.

إنَّه «رجل كل العصور»

منقذها، وهاديها، ومحطِّم أَغلالها وسلاسلها ومطلق أرواح بنيها من الأسر، وواضع الإصر عنها.

ومنذ قال الله تعالى له:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلاَ تَطْغَوْا. إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوْا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ الَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنٰتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئٰتِ، ذَٰلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ [هود:١١٤].

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود:١١٢-١١٥].

منذ تلقَّى من الحكيم الخبير هذه الآيات المباركات من القُرآنِ العظيم وهو يعلم أَن أَول عناصر الاستقامة كما أُمر – وعلى ما أُمر – أَلَّا يكفَّ – ومن تاب معه – عن توجيه النداء إلى الناس، وتذكيرهم بأيَّام الله، ودعوة المطَّرَحين في الأَماكن البعيدة، والمتاهات السحيقة إلى عالم القُرب من الله. وإلى النور الذي لا ينطفئ، والصحبة التي لا تضل، والهُدى الذي لَا يزيغ.

ولقد أدرك تمامًا.. لماذا أَتْبَع اللهُ أمره له بالاستقامة على الأَمر. والعزيمة على الرشد بقوله سبحانه ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾.

ذلك وأنَّه رحمة الله للعالمين وأنَّه رجلُ كلِّ العصور ونبيُّها معلِّمُها، لابدَّ أنْ تكون الوسيلة عنده في طُهر الغاية ونبلها.. في جمالها وجلالها.. فيكون مقامه دومًا مقام من يدعو جُموعًا.. لا من يسوق قطيعًا!!

وكيف يوجِّه تعاليمه وقِيَمه.. وعقله وقلبه.. وهُداه ونُهاه إلى البشر أجمعين إذا لم تكن الدعوة والحكمة والموعظة الحسنة نهجه وسبيله.؟

وهل كان الفكر الأوروبيُّ المنصف في القرن العشرين، سيرى فيه «رجلَ كلِّ العصور» لو كانت قوَّة العضلات، هي وسيلته إلى حَمل الناس على ما يرجو لهم من نعمة.. وما يبشِّر به من مبادئ العدل، والإخاء والرحمة.؟

هل رأينا، أو سمعنا أحدًا يصف: الإسكندر، أو جانكيز خان، أو يوليوس قيصر، أو نابليون، أو هتلر، بأنه «رجل كل العصور».؟

ما كان ذلك ليكون.

فالقوَّة الغاشمة لا يمكن لها بحالٍ أن تهَبَ الدنيا «رجل العصور»؛ بل ولا رجلَ عصرٍ واحد. إنَّما تقدِر العظمةُ وحدها على ذلك.. عظمة الشخص.. وعظمة المبادئ.. وعظمة الغايات.. وقبلها عظمة الوسائل.! وكذلكم كان الإنسان العطر، والفريد الذي ختم الله به رسله وأنبياءه.

الرحمة المهداة..

المبشِّر، والنذير...

والسراج المنير..

ورجل كل العصور..!!

القائم بأعمال رئيس مؤسسة مسقط رأس الإله «راما»: على المسلمين التخلي عن المكان المتنازع عليه في قضية المسجد البابري لايسع قوةً تحمل على بناء المسجد في "أيودهيا"

بقلم: **أبو عاصم القاسمي المباركفوري**

لكناؤ(إيس إين بي):

قال الدكتور/رام فيلاس فيدانتي– القائم بأعمال رئيس مؤسسة مسقط رأس الإله «راما»، وهو يهدد المسلمين بصورة غير مباشرة–: «عليهم أن يتخلوا عن المكان المتنازع عليه حفاظًا على التناغم الطائفي؛ فإنه لايسع قوةً تقوم ببناء المسجد في «أيودهيا». وقال وهو يعرب عن ثقته بالحكومة الحالية–: «بعض القوى الموالية للدولة الجارة تطوِّل هذه القضية، في محاولة لإفساد التناغم الطائفي في البلاد».

وأضاف الدكتور/فيدانتي قائلا: «إن ثمانين في المئة من المسلمين يحرصون على البتِّ في القضية بأسرع ما يمكن، ويرغبون في رؤية معبد الإله «راما» في «أيودهيا»، وأما هيئة الأوقاف السنية فتحرص على خلق التعقيدات في الأمر».

واستطرد قائلا: «وسبق أن أعرب وسيم رضوي–رئيس هيئة الأوقاف الشيعية – عن موقفه من أن ثلاثين ألف معبد هندوكي بما فيه مساجد «كاشي»، و«مثورا»، و«أيودهيا» قد هُدِّمَت وأقيمت مساجد على أنقاضها في طول البلاد وعرضها. رغم ذلك كله لم يطالب مجتمع الرهبان الهندوس بإعادتها كلها إلى الهندوس، وإنما اقترح إعادة ثلاثة مساجد فقط (وهي في «كاشي»، و«مثورا» و«أيودهيا»)..

وأعرب «فيدانتي» عن أمله في أن حكومة (N.D.A) المركزية المشكلة مرة أخرى في الانتخابات الأخيرة تمهد السبيل إلى بناء معبد الإله «راما» في «أيودهيا». ونحن نرغب في حل هذه القضية بصورة قانونية وعن طريق المصالحة، حفاظًا على التناغم الطائفي في البلاد.

(صحيفة «راشتريه سهارا» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٣، السنة: ٢٠، العدد: ٥٤٧٤٩، السبت: ٩/ذوالقعدة ١٤٤٠هـ الموافق ١٣/يوليو ٢٠١٩م).

❋ ❋ ❋

مفكرون يحتجون من جديد ضد القتل على أيدي الحشود الجامحة

٤٩شخصية أهم ترسل خطابا إلى رئيس الوزراء الهندي وتقول: لاتغني مجرد التصريحات؛ بل الحاجة ماسة إلى اتخاذ الخطوات الصارمة ضده

دهلي الجديدة

وسط تصاعد حالات القتل على أيدي حشود

جامحة برز مفكرون في البلاد مرة أخرى للاحتجاج ضـده ،فقـد قامـت (٤٩) شخـصية أهـم بإرسـال خطـاب إلى رئـيس الـوزراء الهنـدي تطالـب باتخـاذ الخطوات الصارمة ضد هذه الظاهرة دون الاكتفاء بالتصريحات في ذلك.

جـاء في فاتحـة هـذا الخطـاب: «المحـاولات متواصلة في طول البلاد وعرضها لاستفزاز الناس باسم رفع نعرة دينية هندوسية».

وقالـــت هـــذه الشخـــصيات البـــارزة: إن إحصائيات مصلحة تسجيل حالات الجريمة يبعث فينا العجب والحيرة. فقد تعرض المنبوذون وفق هــذه الإحــصائيات لــ (٨٤٠) حالــةً منهــا عــام ٢٠١٦م. وانخفض معدل الإجراءات التي اتخذت ضد الضالعين في أمثال هذه الجرائم.

وأضافت: من المؤسف أن يقتل الناس لإبائهم النداء بما ينافي دينهم وعقيدتهم، ويجب منع الناس من ارتكاب هذه الأحداث باسم الإله «راما».

والجدير بالذكر أن ما قام به المفكرون الهنود لم يأت أول مرة، فقد سبق أن قاموا بالاحتجاج ضد القتل على أيدي الحشود الجامحة بالإضافة إلى رد الجوائز التي نالوا من الحكومة على أعمالهم وخدماتهم الممتازة في مختلف المجالات. وطالبوا الحكومة مرات وكرات بضرورة سن قانون صارم يهدف إلى التغلب على مثل هذه الحالات أن تتكرر في المستقبل.

(صحيفة انقلاب اليومية، دهلي/ ميروت، ص١، السنة٧، العدد:١٧٢، الخميس ٢١/ذوالقعدة عام ١٤٤٠هـ = ٢٥/يوليو عام ٢٠١٩م).

من وصايا السلف

عن عبد الملك بن ميسرة عن النزال قال: قال ابن مسعود: أغمي على حذيفة أول الليل ثم أفاق فقال: «أي الليل هذا يا ابن مسعود؟ فقلت: السحر الأكبر الأعلى. فقال: عايذ بالله من جهنم - يقول ذلك مرتين أو ثلاثًا - ابتاعوا لي ثوبين ، ولا تغالوا فيهما؛ فإن صاحبكم إن يرض عنه يكن خيرًا منهما، وإلا يسلبهما سلبًا سريعًا.

عن هارون المدني قال: لما حضر حذيفة قال: «غط يا موت غطك، وشد يا موت شدك، أبئ قلبي إلا حبك، جاء رخاء العيش بعدك، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، أليس ورائي ما أعلم، الحمد لله الذي سبق بي الفتنة، قادتها وعلوجها».

عن الحسن قال: لما حضرت أبا بكرة الوفاة قال: «اكتبوا وصيتي»، فكتب الكاتب: هذا ما أوصىٰ به أبو بكرة صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال أبو بكرة: أكتني عند الموت؟ امح هذا واكتب: «هذا ما أوصى به نفيع الحبشي مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو يشهد أن الله عز وجل ربه، وأن محمدا ﷺ نبيه، وأن الإسلام دينه، وأن الكعبة قبلته، وأنه يرجو من الله عز و جل ما يرجوه المعترفون بتوحيده، المقرون بربوبيته، الموقنون بوعده ووعيده، الخائفون من عذابه، المشفقون من عقابه، المؤملون لرحمته، إنه أرحم الراحمين»

(وصايا العلماء عند حضور الموت، لأبي سليمان محمد بن عبد الله الربعي (ت: ٣٧٩هـ)

رئيس الجامعة: قانون حظر الطلقات الثلاث تشوبه تعقيدات شرعية وقانونية، ولايزيد تنفيذه إلا تعقيدا إذا لم يتم تلافيها

بقلم: **أبو فائز القاسمي المباركفوري**

أقرت الحكومة الحالية قانونا يخص حظر الطلقات الثلاث، أثار غضبًا شديدًا في الأوساط الإسلامية، وأطلق لسانهم بالرفض رفضا باتا له. قال رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند –و هو يعرب عن غضبه الشديد على تقديم الحكومة الحالية مشروع قانون يخص حظر الطلقات الثلاث-: «إن النكاح عقد من العقود، ولابد أن يعاقب من ينقضه، ولايسع مؤسسة من المؤسسات الإسلامية – سواء كانت هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند أو امرأة مسلمة – أن تتقبلها إذا لم يتم إعداده في ضوء الكتاب والسنة، وينافي روح الدستور الهندي».

وأضاف فضيلته قائلا: «وظلت هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لعموم الهند، وجمعية علماء الهند وغيرهما من المنظمات الإسلامية وأهل العلم والفتوى ينبهون الحكومة على هذه التعقيدات الشرعية والقانونية التي تعيب مشروع القانون هذا. كما طالبوا غير مرة بضرورة تلافي التعقيدات الشرعية والقانونية التي تشين هذا المشروع، مؤكدين أن تنفيذه دون التغلب عليها لن يزيد إلا تعقيدات ومشاكل. وسينعكس سلبا على الأقلية المسلمة وخاصة النساء والصبيان».

(صحيفة «انقلاب» الأردية اليومية، دهلي الجديدة/ميروت، ص٣، السنة:٧، العدد:١٧٣، الجمعة: ٢٢/ذو القعدة ١٤٤٠هـ= ٢٦/يوليو عام ٢٠١٩م)

وفد من السفارة البريطانية في الهند يصل إلى الجامعة، ويطلع على حركة الرسائل الحريرية

زار وفد مكون من نفرين: رئيس قسم السياسة والعلاقات الثنائية المدعو/ريتشاردبارول، و المستشار السياسي الاقتصادي المستر/ ملهوترا في السفارة البريطانية في الهند دارَالعلوم/ ديوبند يوم الخميس ٧/مارس عام ٢٠١٩م، واجتمع بكل من فضيلة الشيخ عبد الخالق المدراسي- وكيل الجامعة- و فضيلة الشيخ / عبد الخالق السنبهلي وكيل الجامعة. واطلع الوفد على حركة الرسائل الحريرية التي شنها أحد خريجي هذه الجامعة وهو شيخ الهند محمود حسن الديوبندي لتحرير البلاد من الاحتلال البريطاني.

وسبق أن زار الوفد كثيرا من المناطق الهندية للاطلاع على أوضاع المجتمع الهندي. وقال الوفد فيما يخص دارالعلوم/ديوبند: «أثار عجبي ما شاهدت بأم عيني من مباني الجامعة ونظامها وإدارتها».

وأعرب عن شدة إعجابه بأن هذه المؤسسة التعليمية توفر الوجبات الغذائية: الغداء والعشاء، والسكن لنحو خمسة آلاف طالب.

وتطرق المستر/ ريتشارد بارول في حديثه مع وكيل الجامعة إلى الأوضاع السياسية، فقال فضيلته: «دارالعلوم/ديوبند مؤسسة تعليمية غير سياسية، فلانعلق على الأوضاع السياسية على الإطلاق».

وأشار فضيلته إلى أن مسؤوليها يحذرون لقاء القيادات السياسية إبان الانتخابات في الهند لتجنيبها التأثيرات السياسية. وتلعب هذه المؤسسة دورًا ملموسًا في خلق مجتمع آمن، وترغِّب الطلاب في الانكفاف على الشؤون التعليمية أيام تحصيلهم الدراسي».

زار الوفد أبرز مباني دارالعلوم القديمة والجديدة أمثال جامع رشيد، والمكتبة العامة قيد وضع اللمسة الأخيرة والمكتبة القديمة التي تزخر بآلاف النوادر والمخطوطات. وكان ذلك كله مبعث عجب وحيرة للوفد.

(صحيفة «ميرا وطن» الأردية اليومية، دهلي الجديدة، ص٦، السنة:٤، العدد:٤، الجمعة ٣٠/جمادى الآخرة ١٤٤٠هـ= ٨/مارس عام ٢٠١٩م)

بقية «إشراقة» المنشورة على ص ٥٦

إنّ النـاس لـو أدركـوا قيمـةَ الوقـت لم يَتَنَافَسُوا في اكتنـاز شيء واستثماره تنافسَهم في اغتنـام الوقـت والاستفادة مـن جميـع لحظاتـه وثوانيـه ودقائقـه. النـاس يختلفـون، فبعـضـهم يـستغلّ الوقـتَ حتـى يـستفيدون مـن جزئيّـات الدقيقـة الواحـدة، ويهـدره كثـير مـنهم حتـى بالـسنين الطويلـة، ولا يـدركون لـه قيمـة، ولا يُعِيرونـه اهتمامًـا، ولا يُلْقُـون إليـه بـالًا، ويَظُنُّونـه أثقـلَ شيء فيهدرونــه بلعــب الأوراق وبأتفــه الأشـياء التـي لا تعـود علـيهم بفائـدة في الـدنيا والآخرة.

الوقــتُ يُــشَكِّل حــضورَه عــلى امتــداد الفـضاء، ويـسري كالمـاء العـذب منـذ الأزل، وسيظلّ سرمديًّا يسقي الأرض ومن وما عليها، دون تفريق بين الألوان والأشكال والأعراق، أو الأوطان والبلدان.

ويقـال: إن المـصريين القـدماء كـانوا أوّلَ مـن اسـتفادوا مـن الوقـت في معرفـة فيـضان «النيل» ومواسم الزرع. وكان العرب أول من اخـترع آلـة تحديـد الوقـت، ممّا يؤكـد اهـتمامهم بقيمـة الوقـت، فهـذا عبّـاس بـن فِرنـاس بـن ورداس(١).

(١) هو أبو القاسم عبّاس بن فرناس بن ورداس التاكرني الأندلسي، كان من كورة تاكرين بالأندلس – إسبانيا اليوم – ولد في القرن الثالث الهجري الموافق القرن التاسع الميلادي، أثناء فترة حكم الخليفة الأموي بالأندلس الحكم بن هشام، تعلّم القرآن الكريم وتعاليم الدين الإسلامي في كتاتيب تاكرين، ثم توسّع في العلم بمسجد قرطبة، خاض بعد ذلك في علوم الأدب واللغة العربية والبلاغة والطب والكيمياء والرياضيات والصديلة والفلك، فكان عالمًا موسوعيًّا، واشتهر بمحاولته للطيران، وكان شاعرًا، وكان أول طيار في التاريخ، لقب بـ«حكيم الأندلس».

لعباس بن فرناس العديد من الاختراعات التي كانت مُشَجِّعَةً لمن بعده في الاستمرار في البحث والتنقيب عن المعرفة، ولا زال لهذه الاكتشافات أثر حتى الوقت الحالي، وتنوعت أبحاثه واختراعاته في مجالات الفلك، والموادّ الحربية والصناعيّة وغيرها:

منها: أنه ساهم في تطوير الكتابة عن طريق اختراعه لقلم الحبر، الذي كان له شكل بدائي احتوى اسطوانة بها حاوية ذات رأس مدبب، يسكب فيها الحبر من أجل الكتابة.

وكان أول من اخترع أداة لقياس الوقت (الساعة) التي سميت بـ«الميقاتة» وكانت تستخدم في قياس الوقت بشكل عامّ وقياس مواعيد الصلاة بشكل خاصّ، وكان لها شكل دائري مقسم إلى أقسام متساوية، والزوايا الموجودة في هذه الأداة تشير إلى الدقائق والثواني، وكانت الميقاتة تعمل عن طريق قياس الظلّ وزواياه ودرجاته.

ومن الاختراعات المشهورة عنه، اختراعه لرداء يحتوي جناحين مكسوّين بالريش، وكان هدفه هو الطيران، وذلك بعد دراسة حركة أجنحة الطيور، ولكن ما لبثت هذه المحاولة أن باءت بالفشل، حيث استطاع الطيران لبضعة دقائق فقط، وذلك لنسيانه لدور الذيل في الطيران. ومع ذلك قد ساعدت هذه التجربة العلماء من بعده على دراسة تجربة الطيران بشكل أكثر صحة.

كما استخدم الزجاجَ في اختراع نسخة بدائية من عدسات تصحيح النظر.

واخترع آلة لرصد حركة الشمس وحركة القمر والكواكب خلال الليل، وأطلق عليها اسم «ذات الحلق».

قام بصنع أداة مكوّنة من عدة حلقات هدفها رصد النجوم وحركتها في السماء. ◄

إنّ السلف من العلماء والأئمة الكرام، قَضَوْا حياتَهم كلَّها عاملين مجتهدين ولم يَدَعُوا ثانيةً تضيع هدرًا دونما فائدة؛ لأنهم كانوا يعلمون أنّ الحياةَ هي الوقت، والوقتَ هو الحياة، فمن أَهْدَرَه أَهْدَرَ حياتَه، فتمكنوا من إنجاز ما نُدْهَش له.

فهذا ابن حزم الأندلسي (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الأندلسي القرطبي: ٣٨٤-٤٥٦هـ = ٩٩٤-١٠٦٤م) ألّف في حياته الممتدة على ٧٢ سنةً فقط ١٠٠ مجلد في ٨٠ ألف ورقة.

وهذا عبد الملك بن حبيب المرداسي السلمي الأندلسي (١٧٤-٢٣٨هـ = ٧٩٠-٨٥٣م) ألّف في حياته التي لم تتجاوز ٦٣ سنة ألف كتاب.

وهذا ابن تيمية (تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام النميري الحراني الدمشقي المشهور بـ«ابن تيمية»: ٦٦١-٧٢٨هـ = ١٢٦٣-١٣٢٨م) ألّف أكثر من ٣٣٠ كتابًا بما فيه فتاواه التي تبلغ ثلاث مئة مجلد. ولم يتجاوز عمره ٦٥ سنة ميلادية و ٦٧ سنة هجرية.

وهذا ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمود بن أحمد بن أحمد الكناني العسقلاني ثم المصري الشافعي المعروف بـ«ابن حجر»: ٧٧٣-٨٥٢هـ = ١٣٧١-١٤٤٩م) ألّف أكثر من ٢٧٠ كتابًا في مختلف العلوم: والتاريخ، والتراجم.

وهذا جلال الدين السيوطي (عبد الرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد سابق الدين

► قام بصنع قبّة سماوية على سقف منزله، و وضع عليها نجومًا وكواكب، كما وضع بعض الظواهر الطبيعية كالمطر والرعد والبرق، وذلك عن طريق استخدامه لبعض الآليات التي صنعها بنفسه، وقد أصبحت هذه القبة مكانًا يتجه إليه جميع الناس، والجدير بالذكر أنه أول من قام بصنع هذه القبة.

وله بعض الاختراعات الحربية التي ساعدت جيوش المسلمين في عصره، ومن أهمّها:

مزج بعض المكونات الكيميائية مع بعضها البعض ليخترع ما يشبه القنبلة المسيلة للدموع، الموجودة في عصرنا الحالي.

صنع آلة قتالية تعمل على دكّ الحصون، حيث قام باستخدامها الخليفة في إحدى حروب المسلمين، وقد ساعدته على الانتصار على أعدائه.

اخترع الزجاج عن طريق استخدام بعض الرمال والحجارة الموجودة في بعض التلال القريبة من مدينة قرطبة.

قام باختراع طريقة لتقطيع حجارة الكريستال، التي طُوِّرَت لاحقًا من قبل الغرب.

كان له سوق يبيع من خلالها الذهب والفضة كأدوات للزينة، وذلك عن طريق صهر هذه الموادّ داخل قوالب لسبكها وزخرفتها.

كما اهتم بفن العمارة، حيث قام بنحت العديد من الصور والتماثيل لمدينة قرطبة مما جعلها من أجمل المدن الأندلسية وقتذاك، كما قام ببناء عدد من نوافير المياه في الحدائق والقصور.

توفي بمدينة قرطبة في ٢٦٤هـ الموافق ٨٨٧م، خلال عهد الخليفة محمد بن عبد الرحمن.

خضر الخضيري الأسيوطي المشهور بـ«جلال الـدين الـسيوطي»: ٨٤٩-٩١١هـ = ١٤٤٥-١٥٠٥م) لم يَعَـشْ إلّا ٦٢ سـنة هجريـة و ٦٠ سنة ميلادية ألّف ست مئة (٦٠٠) كتاب في التفـسير، والفقــه، والحــديث، والأصــول، والنحــو، والبلاغــة، والتــاريخ، والتــصوف والأدب واللغة وأنواعها.

وهـذا هـو «حكيم الأمـة» العلّامـة الجليل والمربي الكبير أشرف عـلي التهـانوي (١٢٨٠-١٣٦٢هـ = ١٨٦٣-١٩٤٣م) مـــن العلـــماء المتأخرين الذين درجوا على أرض الهند قد ألّف أكثـر مـن ٨٠٠ مؤلـف مـا بـين كبـير وصـغير، وبعضُها جليلةُ القيمة كبيرةُ القامة يحتاج تأليفُها إلى إجهاد الفكر طويلًا. وقد عُرِفَ بالحفاظ على الوقت حفاظَ الشحيح على ماله؛ فلم يَدَعْ ثانيةً تضيع دونما استفادة وإفادة.

وقد ذكرنا هؤلاء الأعلام على سبيل المثال وإلّا فهنـاك عـددٌ لا يُحْصَىٰ صـنعوا ذواتهـم، وصـقلوا صـفاتهم، وصـاروا سـماءً غَبَطَـتْ بهـا الأرضُ؛ لأنهم حافظوا على الوقت، فبارك الله لهم فيه، فصنعوا في المدة المحدودة من حياتهم ما يقف أمامه كلُّ عاقل مدهوشًا.

إنّ الوقتَ قصيرٌ جدًّا لمن لا يحتفظ به، ولا يَـسْتَغِلّ ثوانيَـه ودقائقَـه فـيما يريـد أن يَـصْنَعه في حياتـه، ولم يعـرف الطريـقَ إلى الاسـتفادة منـه، وتوزيعه بدقّة متناهية بين الواجب والأوجب والمنـدوب والفريـضة كـما يُـوَزِّع أحدُنا أجـزاءَ الذهب والفضة بين من يراه يستحقّهما في ماله. إن الواجب على كل من يريد أن يُسَجِّل اسمَه في جبـين التـاريخ وصـفحة الكـون أن يُـبَرْمِجَ أوقاتَـه ويُنَظِّمهـا تنظيـمًا دقيقًـا مُحْكَـمًا باعتبارهـا أثمنَ كنز وأغلى ثروة يتوقّف عليها نجاحُ الحياة أو فـشلُها، نجاحُهــا إذا أُحْـسِنَ اسـتخدامُها، وفـشلُها إذا أُسِيءَ الانتفـاعُ بهـا، وجَـرَى إهمالُها فإهدارها سُدىً.

والوقـتُ طويـلٌ مُتَّسِعٌ كبـيرُ الإفـادة، كثيرُ النفع، لمن يحرص عليه حرصَ البخيل على جميع مالـه و مُمْتَلَكَاتـه ودراهمـه ودَوَانِقـه وعـلى كـلّ مـا لديه من الناطق والصامت، فيبذله على ما يريد إنجـازَه في حياتـه فـيما يتّـصل بالـدنيا والآخـرة، فيُحَقِّـق خـلالَ حياتـه الواعيـة مـا يفـوق الـزمن الذي عاشه كمًّا وكيفًا، فيُصْبح الناظرُ إليه تمثالًا للحيرة والاستعجاب، ولا يكـاد يُصَدِّق عينَه؛ لأنه قد يظنّ أنها قد سُحِرتْ.

(تحريـرًا في الـساعة الواحـدة ظهـرًا مـن يـوم الخمـيس: ١٣/ذوالحجة ١٤٤٠هـ، الموافق ١٥/أغسطس ٢٠١٩م).



الحياة هي الوقت

لقد صَحَّ ما قاله العلماءُ: إنّ الحياة هي الوقت، فمن أَهْدَرَ الوقتَ أهدر الحياةَ.. والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك، كما وردت الرواية بأن الوقت كالسيل إن لم تقطعه قطعك.

ظلّ الوقتُ أغلى الأشياء طَوَالَ تاريخ الكون؛ لأنه كنزٌ أزليّ وثروة إلهيّة ونعمة ربّانيّة غالية لايمكن تقديرها بثمن، لا تَطَالُه يدُ سارق، ولا يدُ سلطان، ولا يسطو عليه لِصٌّ، ولن تصل إليه يدُ قاطع طريق ولا ناهب ولا مختطف ماكر محتال، ثروة موفورة لكل أحد لا تنفد بكثرة الاستهلاك، ولا تَخْلَق بكثرة الاستغلال، تُتَاحُ حيازتُها لكل فرد من الأغنياء والفقراء، وامتلاكُها للمُوسِرِين والمُعْدِمِين على السواء.

الوقتُ كنزٌ هو أغلى ما وَضَعَ اللهُ تعالى بفضله ومنّه بين يَدَيْ خلقِه، لا يستطيع أفضلُهم الاستزادةَ منه كما لايقدر أَوْضَعُهُم على الانتقاص منه، هو أَسْهَلُ التناول على كل من يُوَفِّيه حَقَّه وعلى من يَعْبَث به عَبَثَ الوليد بجانب القرطاس، ويفيض بثوانيه ودقائقه وساعاته على الغافل والنشيط معًا وعلى النائم واليقظان في وقت واحد، وعلى الصالح الساهر على ذكر الله في خلوات الليالي الهادئة الوادعة وعلى الطالح الذي يشقى فيها بممارسة ما يُسْخِط اللهَ المنتقمَ الجبارَ، كالشمس تُرْسِل أشعّته على قصر الأمير وكوخ الفقير على السواء، والبدر الذي يَطْلُع بطلعته البهيّة على حبيس الزنزانة وعلى الطليق من العشاق الوُلَّه الهائمين معًا.

من استغلّه صار أبا حنيفة أو شافعيًّا أو مالكًا أو أحمد بن حنبل، أو...، ومن لم يستغلّه وأهدر قيمتَه ضاع في دياجير الحياة وصحراء الكون لم يُسَجِّل اسمَه التاريخُ ولا ذكره كُتَّاب السِّيَر والتراجم.

(البقية على ص ٥٣)

أبو أسامة نور
nooralamamini@gmail.com